الرسالة : ١٣٨

السود في التراث العباسي

قراءة في الجاحظ وابن الجوزي

د. عبدالله محمد الغزالي
قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة الكويت

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - الحولية العشرون - ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

المؤلف :

د. عبدالله محمد الغزالي

مدرس بقسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الكويت .

البحوث المنشورة :

- نهاية الأرب في شرح لامية العرب ، للشنفرى بن مالك الأزدي - لمؤلفه عطاء الله بن أحمد المصري الأزهري - دراسة وتحقيق . حوليات كلية الآداب ، الحولية الثانية عشرة ، الرسالة الرابعة والسبعون ١٩٩١ - ١٩٩٢ .
- أزهار العروش في أخبار الحبوش - لجلال الدين عبدالرحمن ابن أبي بكر السيوطي - دراسة وتحقيق - مركز المخطوطات والتراث والوثائق - الكويت - أكتوبر ١٩٩٥م .
- أبو بكر السقاف وتائيته . مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة . المجلد ٤٠ ، الجزء الثاني - رجب ١٤١٧هـ/ نوفمبر ١٩٩٦م .

البحوث المقبولة للنشر :

- كنه المراد في بيان بانت سعاد ، لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي - تحقيق ودراسة - مقبول للنشر ، مركز المخطوطات والتراث والوثائق ، الكويت ، ٤/ ٢/ ١٩٩٦م .

المحتوى

الملخص

لقد احتلت قضية الإنسان الأسود مساحة كبيرة في التاريخ والأدب منذ أقدم العصور، فتناولها الأنبياء والرسل كما تناولها الأدباء والشعراء، وفي التراث العربي الإسلامي تراوحت قضية السود بين القوة والضعف، ففي العصر الجاهلي اضطهد السود والعبيد والإماء واعتبروا طبقة دنيا تعيش لخدمة الإنسان الأبيض والسادة الأحرار وتقتنع بالعيش في ظلال الحياة وعلى مشارفها. أما في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين نلاحظ نصرة الدين الإسلامي الواضحة للسود ومحاولة مساواتهم مع الآخرين تحت شعار: إنما المؤمنون إخوة، فنزل الكثير من الآيات القرآنية وروي الكثير من الأحاديث النبوية لترفع من شأن السود ولتساويهم مع البيض وغيرهم في مجتمع جديد أساسه العدل والمساواة بين الناس. ولما كانت الدولة الأموية قد قامت على العصبيات العربية في أضيق نطاقاتها فقد تراجعت قضية السود إلى الوراء كثيراً ورجعوا للعيش طبقة أخيرة في المجتمع الأموي العربي. ومع ثراء الدولة الفاحش زادت طبقة السود عدداً للخدمة في المنازل والقصور والحانات ودور الغناء والرقص والشراب أو العمل في تربية الماشية وزراعة الأرض. وإن إحساس السود بالظلم والقهر هذا دفعهم إلى مناصرة العباسيين والاشتراك في الجيوش العباسية كجيش أبي مسلم الخراساني لإقامة دولة العدل والمساواة. وقد تحسن وضع السود في العصر العباسي كثيراً، لكنه سرعان ما تبدلت الأحوال وعاد إحساس السود بالظلم والقهر فزادت قوتهم وشكلوا خطراً كبيراً على العباسيين بقيامهم بثورة الزنج (٢٥٥هـ- ٢٧٠هـ) حتى قضي عليها. ليبدأ عصر جديد يعيش فيه السود على هامش الحياة العباسية وما بعدها.

وقد تناولت في هذا البحث دراسة: السود في التراث العباسي وركزت على عملين هما:

١ـ فخر السودان على البيضان للجاحظ .

٢ـ تنوير الغبش في فضل السودان والحبش لابن الجوزي .

فتناولت العملين ودرستهما في إطار تاريخي لحركة السود في عصر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ وعصر ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ .

وفي دراسة العملين ركزت على بيان البنية الدلالية ومنهج المعالجة لكل عمل ، وخلصت إلى أن الجاحظ وضع كتابه معتمداً على المناظرة والجدل المعتزلي ورابطاً بين اللون الأسود والعربي بكل ما فيهما ، في بناء دلالي ثابت وفق منهج ناجح في المعالجة ، بينما اعتمد ابن الجوزي في كتابه على السرد التاريخي الديني في بناء دلالي ثابت ووفق منهج ناجح أيضاً .

المقدمة

تعدُّ قضيـة لون الإنسان من القضايا القديمة في التاريخ الإنسـاني، وأصبحت قضية معقدة عندما حاول الإنسان الأبيض التقليل من شأن الأسود، وزادت القضية تعقيداً عندما أقدم الإنسان الأبيض في فترات محددة من التاريخ، على استبعاد الإنسان الأسود وسلب حريته وإيقاع أصناف من الظلم والقهر به بعيداً عن مبادئ العدل والمساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان.

وحظيت قضية الإنسان الأسود باهتمام كبير منذ بداية ظهور الدين الإسلامي في مكة، حيث نادت مبادئ هذا الدين الإسلامي بالمساواة بين الناس جميعاً، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ولا فضل لأبيض على أسود، فالكل سواسية أمام الله وإنما ﴿أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات ١٣)، فنزل الكثير من الآيات القرآنية في السود والرقيق والإماء وما ملكت اليمين، كما خصص الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة لبيان فضلهم، ولتحث على حسن معاملتهم وإطلاق حريات العبيد منهم. إلا أن حالهم هذا لم يدم طويلاً زمن الدولة الأموية، فرغم بقاء النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ومبادئ الدين الإسلامي الداعية إلى المساواة بين الناس جميعهم إلا أن الدولة الأموية القائمة على مبادئ العصبية العربية قد أضعفت من شأن السود، الذين أحسوا بعودة الظلم إليهم، فأدى هذا الإحساس إلى مناصرة السود للثورة العباسية منذ الإعداد لها، وعند قيامها حتى عصر الجاحظ وما بعده بقليل عند قيام ثورة الزنج سنة ٢٥٥هـ وإخمادها سنة ٢٧٠هـ، ليبقى السود بعد ذلك طبقة اجتماعية مستضعفة حتى زمن عبدالرحمن بن الجوزي.

ولقد ظهر الكثير من الكتابات في المفاخرة بالسود على البيض أو في رفع شأن السود أو الانتصار لهم أو تفضيلهم على البيض، ومن هذه الكتابات كتب وصلت إلينا مثل: فخر السودان على البيضان للجاحظ، وتنوير الغبش في فضل السودان والحبش لابن الجوزي، ورفع شأن الحبشان، وأزهار العروش في أخبار الحبوش،

ونزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر للسيوطي، والطراز المنقوش في محاسن الحبوش لمحمد بن عبدالباقي البخاري، والجواهر الحسان في أخبار الحبشان لأحمد الحنفي القنائي الأزهري.

ومنها كتب لم تصل إلينا فيما يبدو مثل: كتاب تفضيل السود على البيض لأبي العباس عبدالله بن محمد الناشئ الأنباري المتوفى سنة ٢٩٣هـ. وكتاب السودان وفضلهم على البيضان لابن بسام المحولي محمد بن خلف المرزبان، المتوفى سنة٣٠٩هـ، وكتاب الاعتنا في شأن من يقتنى لعبدالنافع بن عراق المتوفى سنة٩٦٢هـ، ومنها كتابات عن السود جاءت في صفحات أو فصول أو أبواب من كتب كما هو الأمر عند الثعالبي في كتابه: تحسين القبيح وتقبيح الحسن، وعند الحصري القيرواني في كتابه: زهر الآداب، وعند ابن قتيبة في كتابه: عيون الأخبار، وعند ابن حبيب في كتابه: المحبر، وعند مجدالدين النشابي الكاتب في كتابه: المذاكرة في ألقاب الشعراء.

وهذا البحث دراسة لما كتب عن السود في العصر العباسي، وقد خصصته لدراسة كتابين: الأول، فخر السودان على البيضان للجاحظ المتوفى سنة٢٥٥هـ والثاني، تنوير الغبش في فضل السودان والحبش لابن الجوزي المتوفى سنة٥٩٧هـ.

وحتى أصل إلى العصر العباسي وضعت تمهيداً عن السود قبل العصر العباسي ليشمل مختصراً عنهم منذ ما قبل الإسلام، ثم وضعهم في دولة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم وضعهم في دولة الأمويين. ثم عمدت إلى دراسة كتاب الجاحظ في إطاره التاريخي للوقوف على وضع السود في عصر الجاحظ وتأثيرهم الواضح في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وأثر ذلك في دفع الجاحظ للكتابة عنهم والمفاخرة بكل ما هو أسود على البيض.

ثم بينت أسلوب الجاحظ في هذا الكتاب وهل هو أسلوب جديد أم قديم عرف به؟ ولما كان كتاب الجاحظ في موضوع فخر السودان على البيضان فقد بينت البنية

الدلالية لهذه المفاخرة وهويتها، ثم بينت منهج المعالجة في كتاب الجاحظ هذا ووضعت ملاحظاتي عليه.

كما درست كتاب ابن الجوزي: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش، في إطاره التاريخي أيضاً، فأوضحت ما آلت إليه أوضاع السود من ضعف في العصر السلجوقي ببغداد حيث وضع ابن الجوزي مؤلفه. وبينت أسلوب ابن الجوزي في كتابه، ثم أوضحت البنية الدلالية في كتاب ابن الجوزي وبسطت أبواب الكتاب، وأوضحت منهج المعالجة فيه، ووضعت ملاحظاتي عليه. ثم ختمت هذا البحث بخاتمة تشمل نتائج البحث وخلاصته.

تمهيد
السود قبل العصر العباسي

منذ فجر التاريخ استوطنت جماعات حامية، أو كوشية، في الشمال الشرقي من إفريقية، بما فيه إثيوبيا الحديثة، غير أن موطنهم الأصلي لم يعرف على وجه التحديد، ثم توسع هؤلاء واستوطنوا بلاد النوبة ومصر العليا.

وأطلق الإغريق القدماء عليهم اسم الإثيوبيين، وسموا بلادهم إثيوبيا، أي الوجه المحروق، وشملت هذه التسمية قدماء المصريين وقبائل البيجة في شرقي السودان وغربي أريتريا وقبائل بني عامر القاطنين قرب ميناء مصوع، ويتحدث هؤلاء اللهجة الكوشية الممزوجة باللغة العربية. وظل دمهم نقياً لم يختلط بدم الزنوج سكان الشمال الإفريقي الأصليين.

ويمتاز الإثيوبيون «باستطالة الرأس، واعتدال طول القامة، واستقامة الأنف. أما لون البشرة فيتدرج من السمرة الممزوجة بالاصفرار إلى النحاسي، أما الشعر فمتجعد عادة غير أنه ليس بصوفي الشكل والملمس ولا كثاً كشعر الزنوج، ولحى رجالهم عادة خفيفة المنبت، والشفاه غليظة أحياناً إلا أنها غير مرتدة إلى الخارج كشفاه الزنوج»[(١)].

ولقد نزحت قبائل سامية من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر إلى مساكن الحاميين وامتزجوا بهم قديماً، وفي حدود الألف قبل الميلاد غزت قبائل سامية سبئية شمالي هضبة الحبشة (أريتريا حالياً)وهضبة هرار وانتشرت مظاهر الحضارة السبئية في الحبشة، وعلى مر الأيام تزاوج الجنس السامي القادم مع الجنس الحامي في هذه المنطقة، وتكون من هذا المزيج ما يعرف بالأحباش، وقد تكون لفظة الأحباش مشتقة من القبائل اليمنية المعروفة باسم حبشات، أما لغتهم فقد كانت تسمى لغة

١ـ العارف، ص ٤ـ٦ .

الجعيز، نسبة إلى قبيلة الأجاعز اليمنية، ثم توالت الهجرات السامية السبئية إلى بلاد الحبشة ولاسيما بعد انهيار سد مأرب بعد منتصف القرن الخامس قبل الميلاد.

وبعد اتصال الساميين بالحاميين انفتح الطريق للهجرة من الجزيرة العربية إلى الحبشة. وفي ذات الوقت كانت هناك هجرات عكسية حيث هاجر الكثير من أهل الحبشة إلى الجزيرة العربية واليمن، ثم زاد نفوذ الأحباش في القرنين الثاني والثالث للميلاد حتى تمكنوا من السيطرة وبسط النفوذ على أجزاء من اليمن، وفي زمن الدولة الحميرية الثانية غزوا اليمن وحكموه مدة قصيرة(٢). وبذلك يكون الجنس الحبشي قد دخل اليمن وأجزاء أخرى من الجزيرة العربية منذ القرن الثاني للميلاد تقريباً. وأدى ذلك إلى اختلاط الجنس الحبشي بالجنس السامي العربي الأصيل عن طريق زواج العرب من الحبشيات والإنجاب منهن، فيما ظل أحباش آخرون محافظين على جنسهم الحبشي الخالص فتزاوجوا فيما بينهم وعاشوا بين العرب في الجزيرةالعربية. وهذا ما يفسر وجود شخصيات حبشية سوداء فقيرة ومملوكة تمتهن المهن البسيطة كالخدمة في المنازل من جهة(٣) وشخصيات عربية سوداء - أتاها سواد اللون من جهة الأم الحبشية - تنتمي إلى طبقة الأشراف العرب وتنتسب لأكبر البيوتات وأشرفها في الجزيرة العربية ولاسيما مكة من جهة ثانية(٤).

٢- بدوي، السود والحضارة العربية، ص ٦٤-٦٥.

٣- من أبرز الشخصيات الحبشية السوداء الخالصة في العصر الجاهلي التي لم تبرز أسماؤهم إلا بعد الإسلام، من الرجال: أبو بكرة، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بلال بن رباح، خالد الحواري، ذو دجن، ذو مخبر أو مخمر، ذو مناصب، ذو مهدم، شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عاصم مولى زرعة الشقري، أبو لقيط مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مهجع مولى عمر بن الخطاب، نابل والد أيمن، ويسار مولى المغيرة بن شعبة، ووحشي بن حرب. ومن النساء: أم أيمن واسمها بركة حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرضعته، بركة جارية أم حبيبة، بريرة مولاة عائشة، سعيرة ونبعة. انظر هؤلاء عند: السيوطي، ص٤٣ وما بعدها. وانظر: البخاري، ص٧٩ وما بعدها.

٤- ومن أبرز الشخصيات العربية سوداء اللون التي أتاها السواد من جهة أمهاتهم الحبشيات هم: نضلة بن هشام بن عبد مناف، نفيل بن عبدالعزى، عمرو بن ربيعة، الخطاب بن نفيل، عمرو بن العاص، معمر بن عثمان التيمي، الحارث بن عثمان بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي، عثمان بن الحويرث، صفوان بن أمية بن خلف، هشام بن عقبة بن أبي معيط، مالك بن عبيدالله بن عثمان الأزدي، عمير بن جدعان التيمي، أبو مليكة ابن عبدالله بن جدعان التيمي، عبدالله بن أبي مليكة بن عبدالله بن جدعان، عبيد الله بن عبدالله بن أبي مليكة، =

وعند ظهور الإسلام في مكة كان الأحباش منتشرين بشكل ملاحظ في مكة وأنحاء أخرى من الجزيرة العربية وكان العرب يملكون الكثير من العبيد والإماء الأحباش للعمل في منازلهم وتجارتهم، وعلى العكس من السود العرب فقد كان الأحباش يعاملون معاملة دونية سيئة لا تخلو من الظلم والمهانة.

ولما ظهر الدين الجديد ونادى به محمد صلى الله عليه وسلم في مكة كان الأحباش يشكلون طبقة اجتماعية مملوكة وضعيفة مضطهدة سارعت إلى الدخول في الإسلام والانتصار للدعوة الجديدة.

ومبادئ الدين الإسلامي السامية المبنية على العدل والمساواة بين الناس كانت دافعاً قوياً شجع الكثيرين من الأحباش على اعتناق الإسلام فيما بعد، وعلى العكس من المبادئ والأعراف الجاهلية فقد ساوى الإسلام بين المسلمين جميعاً ولم يفرق بين أبيض وأسود أو عربي وأعجمي إلا بالتقوى، ﴿وإنما المؤمنون إخوة﴾ (الحجرات ١٠).

وعندما نزل القرآن الكريم كانت بعد الكلمات الحبشية الأصل قد دخلت إلى الجزيرة العربية وعربت وأصبحت جزءاً من لسان أهل قريش، وعدد بعضهم هذه الكلمات الحبشية المعربة في القرآن الكريم فوجدها بحدود الثلاثين كلمة، كما فعل

المهاجر بن قنفذ بن عمرو بن جدعان، عبيدالله بن عبدالله بن معمر بن عثمان التيمي، مسافع بن عياض، قرطة بن عبد عمرو بن نوفل، السباق بن عبدالدار بن قصي، عبيدالله بن قيس بن عبدالله بن الزبير بن العوام، سموة بن حبيب بن عبد شمس، عبدالله بن مسافع بن طلحة، عبدالله بن زمعة، أسامة بن زيد، عمرو بن هصيص، عبدالأعلى بن عبدالله بن عامر بن كريز، يزيد بن لبان الضمري، كردوس بن السفلع التغلبي، عنترة بن شداد، السليك بن يثربي السعدي، خفاف بن عمير، عبدالله بن خازم السلمي، عمير بن الحباب، همام بن مطرف، يعلى ابن الوليد بن عقبة، شعبة بن هاني، سعيد بن عمرو الحرشي، أسيد بن علاج الثقفي، عبدالله بن سبأ، المتلمس الضبعي، زياد بن عوف بن حارثة، محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، علي بن محمد بن علي بن موسى، موسى بن محمد بن علي بن موسى، جعفر بن إسماعيل بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي، عبدالله بن موسى بن جعفر بن إسحاق بن موسى بن جعفر، إبراهيم بن حسن بن حسن، محمد وجعفر ابنا إبراهيم بن حسن، سليمان بن حسن عقيلي، محمد بن داود بن محمد بن سليمان، أحمد بن العباس بن الحسن بن عبدالله، العباس بن محمد بن عبدالوهاب، العباس بن المعتصم، العباس بن عبدالله بن إسحاق المهدي، أيمن لهبة الله بن إبراهيم بن المهدي، أحمد بن محمد بن صالح المخزومي، الأخنس.
انظر: ابن حبيب، ص٣٠٦ وما بعدها.

السيوطي في رسالته: أزهار العروش في أخبار الحبوش[٥].

إن ورود هذه الكلمات العربية ذات الأصل الحبشي في القرآن الكريم أعطى انطباعاً عاماً لعرب الجزيرة العربية بأن لغة الأحباش ذات قيمة حضارية راقية وأن بعض كلمات هذه اللغة قد دخل الجزيرة العربية، ولاسيما مكة، وأصبحت جزءاً من اللسان العربي القرشي قبل مجيء الإسلام، ومن ثم فإن ورود هذه الكلمات في القرآن الكريم هو انتصار لطبقة الأحباش السوداء ورفع لمكانتهم الاجتماعية في المجتمع الإسلامي الجديد القائم على مبادئ المساواة والعدل بين الناس.

وبالإضافة إلى ذلك فقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع كلمات حبشية منها كلمة سناه، وتعني الحسن[٦] وكلمة الهرج، وتعني القتل بلسان أهل الحبشة[٧].

وفي ذلك دلالة واضحة على ما تمتع به الأحباش من مكانة سامية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وما حظيت به لغتهم من مرتبة رفيعة عنده، وهي دعوة صريحة إلى قبول الأحباش في المجتمع الإسلامي الجديد دون نقيصة. كما جاءت أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم لترفع من مكانة الأحباش والسود وتجعلهم في مصاف الطبقات الأخرى في المجتمع الإسلامي الجديد ومنها قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

٥- عدد السيوطي الكلمات التي وردت بلغة الحبشة في القرآن الكريم وهي: شطر، الجبت، حوبا، أواه، ابلعي، متكئا، طوبى، سكرا، طه، حرم، السجل، مشكاة، أوبي، العرم، منسأته، يس، أواب، كفلين، ناشئة، منفطر، قسورة، [illegible]، سينين، الأرائك، يصدون، دري، غيض، سندس.

٦- [illegible] البخاري وأبو داود عن أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص قالت: قدمت من أرض الحبشة وأنا جويرية فكساني رسول الله صلى الله عليه وسلم خميصة لها أعلام فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الأعلام [illegible] سناه سناه، يعني الحسن بلسان أهل الحبشة، انظر: البخاري: مناقب الأنصار/ ٣٧، اللباس/ ٣٢، والأدب/ [illegible]، وأبو داود: اللباس/ ٤ ٢ ٤٠.

٧- أخرج [illegible] بن حذيفة قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال: (علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو) ولكن أخبركم بشرائطها، وما يكون بين يديها: أن بين يديها فتنة وهرجاً، قالوا: يا رسول الله الفتنة قد عرفناها فالهرج ما هو؟ قال: بلسان الحبشة القتل. انظر: ابن حنبل: ٣٨٩١٥، البخاري: الفتن/ ٥، [illegible] [illegible] ٢٣.

١ـ اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن[٨].

٢ـ السُّبّاق أربعة: أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبش[٩].

٣ـ إن الحبشة أنجداء وإن فيهم ليمناً فاتخذوهم[١٠].

٤ـ من أدخل بيته حبشياً أو حبشية أدخل الله بيته بركة[١١].

٥ـ الملك في قريش والقضاء في الأنصار والأذان في الحبشة[١٢].

ولاشك أن هذه الأحاديث، رغم الاختلاف في صحتها، قد ساعدت على تحسين نظرة العرب المسلمين إلى الأحباش المسلمين السود والدعوة إلى رفع شأنهم وقبولهم في المجتمع الإسلامي الجديد ليأخذوا دورهم في مجتمع جديد قائم على المساواة والعدل ونبذ الفوارق الاجتماعية فهي «منتنة» كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وثمة دلالات أخرى تشير بوضوح إلى طبيعة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم القائمة على الإعجاب بالأحباش وتقدير مواقفهم، واحترام تاريخهم وأفعالهم مما ساعد كثيراً على دخول أبناء هذه الطبقة وبناتها في الإسلام ليأخذوا مكانهم بين سائر الطبقات سواء بسواء، ليتشكل المجتمع الإسلامي الجديد على مبادىء العدل والمساواة ولعل أبرز هذه الدلالات:

١ـ استحسان رسول الله صلى الله عليه وسلم الحبوش حينما لعبوا بحرابهم في المسجد النبوي الشريف أمامه، وعائشة تنظر إليهم على الرغم من محاولة عمر ابن الخطاب إيقافهم وإسكاتهم[١٣].

٨ـ انظر: ابن حبان: كتاب المجروحين، ١/ ١٨٠، والسيوطي. ص٢٣.

٩ـ انظر: الحاكم: المستدرك، ٣/ ٢٨٥، ٣/ ٢٠٤، والسيوطي، ص٢٣.

١٠ـ انظر: السيوطي، ص٢٥.

١١ـ انظر: الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب: رقم ٥٧٩٥. والسيوطي، ص٢٥.

١٢ـ انظر: ابن حنبل، ٢/ ٣٦٤، ٤/ ١٨٥، والسيوطي: ص٢٥.

١٣ـ انظر: البخاري، صحيح البخاري: الصلاة/ ٦٩، العيدين ٢٥، الجهاد/ ٧٩، المناقب/ ٢٥، وكتاب النكاح/ ١١٤، وانظر السيوطي، ص٢٧.

٢ـ مباركة رسول الله صلى الله عليه وسلم هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة لا إلى غيرها.

٣ـ قبول رسول الله صلى الله عليه وسلم إسلام النجاشي، وقبول هداياه، وتوسيطه في زواجه من أم حبيبة وهي بأرض الحبشة.

٤ـ اختيار بلال بن رباح مؤذناً له.

٥ـ تخصيص سورة بالقرآن الكريم «سورة لقمان» باسم أحد الحكماء السود.

كما أن موقف الإسلام من الرق قد ساعد الأحباش على الدخول في الدين الإسلامي الجديد، إذ إنه على الرغم من اعتماد المجتمع المكي على تجارة الرقيق بشكل كبير إلا أن الدين الإسلامي تعامل مع هذه القضية بشيء من طول النفس والتدرج في إعتاق الرقيق الموجود، وتقليص منافذ الاسترقاق الجديد لتنال هذه الطبقة حريتها كاملة وتمارس دورها في مجتمع العدل والإخاء والمساواة فقد أصبح من حق العبد المملوك طلب الحرية من القاضي، كما أن العبد يصبح حراً لمجرد تلفظ سيده بأي لفظ يفيد بأنه حر، حتى لو كان في حالة سكر مثلاً، كما قررت الدولة الإسلامية تخصيص جزء من الأموال لإعتاق العبيد، بالإضافة إلى أربع حالات أوجب الإسلام العتق فيها وهي: القتل الخطأ، الحنث باليمين، والظهار والإفطار في شهر رمضان، كما أن هناك العتق بإرادة السيد المالك، وعتق المكاتبة وهي أن يشتري العبد حريته بمال، والعتق بالوصية(١٤).

ونظراً لكثرة الرقيق من الأحباش وغيرهم في المجتمع المكي فقد نزل الكثير من الآيات القرآنية في تنظيم الزواج منهم، والتعامل معهم، والحث على عتقهم(١٥)، ولم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وقد آخى بين بلال بن رباح الحبشي وأبي عبيدة عامر بن الجراح القرشي في مجتمع إسلامي بقيمه ومبادئه النبيلة القائمة

١٤ـ انظر: الترماتيني، ص٧٥ وما بعدها.

١٥ـ انظر الآيات في سور القرآن المختلفة مثل: النساء/ ٣ـ ٢٥ـ ٣٦ـ ٩٢، المائدة/ ٨٩، التوبة/ ٦٠، النحل/ ٧١، المؤمنون/ ٥، النور/ ٣١ـ ٣٢ـ ٣٣ـ ٥٨، الروم/ ٢٨، الأحزاب/ ٥ـ ٦ـ ٥٠ـ ٥١ـ ٥٢ـ ٥٥، المجادلة/ ٣، المعارج/ ٣٠، البلد/ ١٣.

على العدل والمساواة بين الناس، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، أسودهم وأبيضهم، عربيهم وأعجمهم.

وهكذا فقد رفع الإسلام من شأن الأحباش السود ليصبحوا طبقة اجتماعية تمارس دورها في المجتمع الإسلامي كغيرها من الطبقات، ودخل الأحباش السود في الإسلام أفواجاً، كما دخل الإسلام غيرهم من السود.

وإذا كان الإسلام في دولة الرسول صلى الله عليه وسلم ودولة الخلفاء الراشدين قد رفع من شأن الأحباش السود وغيرهم من الطبقات والأجناس ووضعهم في صف واحد مع العرب في ظل دولة العدل الاجتماعي والمساواة فإن الحال في ظل الدولة الأموية قد اختلف، فالدولة الأموية قامت على أساس النقاء العربي الخالص[١٦] والانتصار للبيت الأموي ووضعه في مكانة خاصة عالية لا تصل إليها حتى البيوتات العربية القرشية الأخرى، كما أن الإحساس بسوء توزيع الثروة وانحصارها بين أبناء البيت الأموي وأنصارهم، وحرمان الآخرين منها ساعد على إحساس الكثيرين بالظلم الأموي الواقع عليهم، وبغياب الكثير من مبادئ العدل والمساواة التي قام على أساسها الدين الإسلامي، مما دفع الكثيرين إلى الخروج على الدولة الأموية والعمل على إسقاطها. فقد خرج الزبيريون الذين حاولوا إسقاط الأمويين والتحرر من سيطرة القبائل اليمنية الموالية لهم، بينما رأى الشيعة ظلم الأمويين وضرورة وضع الخلافة في البيت العلوي، فيما رأى الخوارج أن تكون الخلافة باختيار الأمة الإسلامية، أما العباسيون فقد استطاعوا إسقاط الخلافة الأموية وإعادة دولة العدل[١٧].

أما طبقة الأحباش وسائر السود غير العرب، فكانت تحاول أن تحافظ على مكتسباتها التي حققتها في دولة الرسول صلى الله عليه وسلم ودولة الخلفاء الراشدين، غير أن نظرة الأمويين المتعالية وعودة العصبيات العربية من ناحية، وثراء

١٦ـ انظر: بدوي، السود والحضارة العربية، ص ١٧٤ وما بعدها.

١٧ـ انظر: ضيف، العصر الإسلامي، ص ٢٠٧ وما بعدها.

الدولة الأموية من ناحية ثانية جعل طبقة الأحباش السود، وغيرهم من السود غير العرب، طبقة ضعيفة ابتعدت عن المجتمع الإسلامي لتعيش في ظلاله كرقيق وجوار يعملون في المهن البسيطة كالخدمة في المنازل، أو الحانات، أو في الرقص والغناء، أو الخدمة في أراضي العرب الأمويين أو العمل في تربية الأغنام أو إصلاح التربة أو الزراعة.

إن ثراء الأمويين واتساع أراضيهم وتجارتهم ساعد كثيراً، على جلب الكثير من السود غير الأحباش لينتشروا في مدن الدولة للعمل، كما أن زيادة جيوش الدولة الأموية ساعد كثيراً على زيادة أعداد هؤلاء السود في جيوش الدولة، ومن هنا فقد فقدت طبقة الأحباش السود التي عرفت في ظل دولة الرسول صلى الله عليه وسلم ودولة الخلفاء الراشدين، وضاع أهل بلال بن رباح الحبشي وأم حبيبة وسعيدة وبريدة وسالم ومهجع وغيرهم بين أفواج مهاجرة جديدة من الزنج، وغيرهم من السود غير الأحباش، الذين وفدوا من إفريقية للعيش في كنف الدولة الأموية.

وهكذا عادت العصبيات والطبقية في ظل الدولة الأموية، ورجع السود ليعيشوا طبقة تابعة بعد الأمويين والتجار والموالي، فاتسعت طبقة الرقيق والجواري، وانحدر وضعهم الاجتماعي إلى مرتبة أدنى عما كانت عليه في ظل دولة الرسول والخلفاء الراشدين. ولقد أحس أكثر من شاعر أسود بالظلم الواقع عليهم في ظل الدولة الأموية، فثاروا منتصرين لطبقتهم، مفتخرين بلونهم الأسود في تحد واضح ومواجهة مع العرب، ولعل من أبرز هؤلاء الشعراء:

١ـ **الحيقطان**: حيث رد الحيقطان على جرير بقصيدة تحتج بها اليمانية على قريش ومضر، ويحتج بها العجم والحبش على العرب ومطلعها:

لئن كنتُ جَـعـدَ الرأس والجلدُ فـاحـمٌ

فــإني لَسَـبْطُ الكفِّ والعـرضُ أزهر[١٨]

١٨ـ الجاحظ، ص١٨٣، وانظر: بدوي، الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي ص ١٥٠.

٢ـ سنيح بن رباح: حيث رد على جرير أيضاً وهجاه بقصيدة فخر بها بالزنج وهجا كليباً ومطلعها:

مـــا بـالُ كلـبٍ من كُـليـب سَــــبنا

أن لـم يُوازن حــاجــبــاً وعــقــالا[١٩]

٣ـ عكيم الحبشي: حيث هجا حكيماً بن عياش الكلبي بقصيدة مطلعها:

ويوم غُـــمــدان كنا الأســدَ قــد علمــوا

ويوم يثـــربَ كنَّا فِـــحْلة العـــربِ[٢٠]

١٩ـ الجاحظ، ص١٩٠ ، بدوي، الشعراء السود، ص ١٥٣ .
٢٠ـ الجاحظ، ص١٩٩ ، بدوي، الشعراء السود، ص ١٥٦ .

السود في العصر العباسي

وعلى عكس وضع السود الضعيف في العصر الأموي فقد أصبح السود يشكلون قوة عسكرية واقتصادية وطبقة اجتماعية ذات شأن في المجتمع العباسي الجديد.

فبسبب اضطهاد الأمويين لغيرهم من الأجناس ولاسيما غير العرب، وقيام دولتهم على أساس العصبية العربية في أضيق نطاقاتها، قامت الثورات الكثيرة في أنحاء متفرقة من الدولة الإسلامية للإطاحة بالأمويين ودولتهم، لإقامة خلافة إسلامية جديدة قائمة على أساس العدل والمساواة، وكان للسود سواء الأحباش أو الزنج أو الموالي دور بارز في مساندة هذه الثورات ضد الأمويين.

بداية كانت الأنظار تتجه نحو أحد أبناء علي بن أبي طالب أو أحفاده لقيادة ثورة ضد الأمويين، لما عرف به علي أبي طالب وأبناؤه من عدل ومساواة وأحقية بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي أحسن معاملة السود وعمل الكثير على رفع شأنهم ومساواتهم مع سائر المسلمين، الأمر الذي دفع السود إلى مساندة أبناء علي بن أبي طالب والتشيع لهم قبل ظهور الحكم الأموي.

ولما توثقت العلاقة بين أحد أبناء ابن الحنفية وهو أبو هاشم، مع محمد بن علي بن عبدالله بن عباس أوصى أبو هاشم بالإمامة لمحمد بن علي وذلك عند وفاته سنة ٩٨هـ، وبذلك وجد العباسيون أساساً شرعياً لهم بالخلافة، استعداداً للإطاحة بحكم الأمويين، ومنذ أن بدأ العباسيون تنظيمهم السري لإسقاط الحكم الأموي كان السود أنصاراً لهم ضد الأمويين الذين لاقوا في ظل دولتهم أنواعاً من القهر والعنصرية والظلم.

وبعد وفاة ميسرة وبكير بن ماهان تسلم الدعوة أبو سلمة الخلال في خراسان ضد الأمويين، وفي زمنه استطاع القائد العباسي أبو مسلم الخراساني هزيمة نصر بن سيار والي الأمويين في خراسان لترفع بذلك الرايات السود لبني العباس في بلاد خراسان

وما تلاها من البلاد الإسلامية. ولما علم إبراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بمقتله على يد مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، عهد بأمر الدعوة العباسية إلى أخيه أبي العباس السفاح الذي استطاع الاتصال بأبي مسلم الخراساني في الكوفة، بعد أن دخلها الحسن بن قحطبة أحد قواده، والتنسيق معه لاعتلاء عرش الخلافة العباسية.

وقد اعتلى أبو العباس السفاح المنبر في المسجد الجامع في الكوفة ونادى له الناس بالخلافة ليكون بذلك أول خليفة عباسي، وهكذا فقد ذهبت جهود أبي سلمة الخلال الذي رأى حق أبناء علي بن أبي طالب بالخلافة.

وما يهمنا هنا هو أن الكثيرين من السود كانوا ناقمين على الخلافة الأموية، ومؤيدين للخلافة الجديدة التي كانت تدعو لإقامة دولة العدل والمساواة. وقد انضم السود إلى الجيوش العباسية وشكلوا قوة ضخمة استعملها العباسيون في إقامة خلافتهم على أنقاض الأمويين. ويذكر ابن الأثير في أخبار سنة اثنتين وثلاثين ومائة أن السفاح استعمل أخاه يحيى بن محمد على الموصل عوضاً عن محمد بن صول، وكان في عسكره قائد معه أربعة آلاف زنجي، قتلوا الكثيرين من الأبرياء، فأتت امرأة إلى يحيى بن محمد «فقالت له: ألست من بني هاشم؟ ألست ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أما تأنف للعربيات المسلمات أن ينكحهن الزنج. فأمسك عن جوابها... فلما كان الغد جمع الزنج للعطاء فاجتمعوا فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم»[٢١]. كما شكل السود قوة كبيرة في جيوش أبي مسلم الخراساني وقاتل بهم الأعداء وأرسى بهم قواعد الدولة العباسية[٢٢].

وبعد قيام الدولة العباسية الجديدة ونتيجة لاتساع أراضيها فقد أصبح رعايا الدولة من جنسيات وأصول مختلفة كالأتراك والفرس والروم والهنود والأحباش والزنوج وغيرهم، وتنافست هذه الأجناس لتشكل طبقات اجتماعية ذات نفوذ في

٢١ـ ابن الأثير، ٤/ ٣٣٩ـ ٣٤٠.
٢٢ـ بدوي، السود والحضارة العربية، ص ١٤٥.

أنحاء الدولة، وحاول بعضهم الدخول إلى داخل قصر الخلافة لإدارته، كما فعل الفرس والأتراك. واستطاع السود أن يشكلوا طبقة اجتماعية واسعة الانتشار، وذات قيمة سياسية كبيرة بلغت الحصول على منصب الوزارة والقيام بثورات، كما أن ثراء الدولة العباسية الواسع ساعد كثيراً على زيادة أعداد السود في المجتمع العباسي، فقد زاد حرص الأغنياء والخلفاء على اقتناء الجواري والرقيق بشكل كبير جداً والتباهي بذلك، فدخل هؤلاء السود أكثر البيوت والقصور والإقطاعات والمزارع العباسية، فقد كان الرقيق يجلب من سواحل إفريقية الشرقية والهند وآسيا الوسطى وغيرها للعمل في الفلاحة والزراعة وتربية الأغنام، أو الخدمة في المنازل والقصور، أو العمل في الخمارات ودور الغناء، فظهرت أسماء لسود في الرقص والغناء، بل أصبح بعض منهن أمهات لخلفاء عباسيين: فهذا أبو جعفر المنصور أمه حبشية، أما إبراهيم بن المهدي فقد كانت أمه سوداء وكان هو شديد السواد، وأم المقتفي حبشية، أما المستكفي فتزوج سكرى الوردية الحبشية، وأما أم الهادي والرشيد فالخيزران الرومية، وأم المأمون مراجل الفارسية، وأم المعتصم ماردة الفارسية، وأم الواثق قراطيس الرومية، وقيل إن الرشيد كان يملك من الجواري ألفين، أما المتوكل فملك أربعة آلاف جارية.

واستطاع الربيع بن يونس، وهو أحد الموالي السود، الوصول إلى أعلى المناصب في قصر الخلافة العباسية، فبعد أن كان مجرد مولى للمنصور يمسك بزمام ناقته أصبح حاجبه فيما بعد ثم وزيراً له[٢٣].

وهكذا يتضح الدور البارز الذي أداه السود في قيام الدولة العباسية ومشاركتهم في جيوش أبي مسلم الخراساني من ناحية، وتكوينهم لطبقة اجتماعية كبيرة، انتشرت في أنحاء متفرقة من أراضي الدولة العباسية، ولاسيما بغداد عاصمة الخلافة، وتأثيرهم البالغ في الحياة الاجتماعية والاقتصادية من ناحية ثانية.

وعلى الرغم من ذلك لم ينجح السود في تكوين حزب سياسي يستطيع أن يؤثر

٢٣ـ الجهشياري، ص ١٢٥.

في صاحب القرار في قصر الخلافة العباسية، كما فعل الفرس مثلاً من خلال أسرة البرامكة أيام الرشيد، أو كما فعل الأتراك أيام خلافة المعتصم. كما أن ثراء الدولة العباسية الواسع أدى إلى جلب الكثير من الزنوج للعمل في إصلاح الأراضي والزراعة والري والحجامة ورعاية الإبل والخيل والماشية، وأدى ذلك إلى اتساع قاعدة السود الفقراء، وزيادة نسبتهم في ظل الدولة العباسية، وإحساسهم فيما بعد بالظلم الواقع عليهم والقهر والفقر وعدم المساواة مع غيرهم، مما أدى ذلك فيما بعد إلى قيام السود بثورات ضد الدولة العباسية أشهرها ثورة الزنج (٢٢٥ ـ ٢٧٠هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٨٣م) التي استمرت أربعة عشر عاماً منذ عهد الخليفة المهتدي حتى قضى عليهم الموفق، بعد أن راح ضحية تلك الثورة ما يقارب من المليون ونصف مليون إنسان سواء في البصرة أو الإبلة أو كور دجلة أو واسط أو غيرها.

وسواء كان أساس ثورة الزنج الفكر الخارجي القائم على مبدأ اختيار الأمة لإمامها حتى ولو كان أسود، أو كان أساسها الفكر الشيعي بعد ادعاء مؤسس ثورة الزنج بأن اسمه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن يزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، إلا أن الواضح أن شعوراً عظيماً انتاب هذه الطبقة السوداء، بأن ظلماً قد وقع عليهم وأنه لابد من العدل والمساواة بين المسلمين جميعهم، وأن لا سبيل إلى ذلك سوى الثورة ضد الخلافة العباسية.

وفي هذه الفترة ظهر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م. ليفخر في رسالته «فخر السودان على البيضان» بفضل كل ما هو أسود إنساناً كان أم حيواناً أم طيراً أم حجراً، معبراً بذلك الفخر عما آلت إليه طبقة السود من انتشار وأهمية في عصره، ليأتي بعده ابن الجوزي.

أولاً : الجاحظ وكتابه : فخر السودان على البيضان

جاء كتاب فخر السودان على البيضان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ/ ٧٦٧-٨٦٩م) ضمن مجموعة رسائل الجاحظ/ الجزء الأول، الرسالة الرابعة، وقد قام الأستاذ العلامة محمد عبدالسلام هارون رحمه الله بتحقيق هذه المجموعة وشرحها، فيما قامت مكتبة الخانجي بالقاهرة بنشر هذه المجموعة سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

وإن كنا لا نعلم على وجه التحديد متى كتب الجاحظ رسالته في: فخر السودان على البيضان، إلا أنه من الواضح أنه كتبها في زمن قوة السود وانتشارهم في مدن الدولة العباسية ولاسيما البصرة والأبلة وواسط وكور دجلة وبغداد وغيرها.

ويحس بعض الأساتذة الأفاضل أن الجاحظ في كتابته لهذه الرسالة في: فخر السودان على البيضان «كأنه يدافع عن أصوله إذا صح أن جده كان عبداً أسود»[(٢٤)] ويبدو، إن صحت هذه الرواية، أنه وإن كان جد الجاحظ عبداً أسود اللون، فإن ذلك لا يعد سبباً كافياً يدفع كاتباً كبيراً كالجاحظ إلى الكتابة عن فضل السودان على البيضان، ولاسيما إذا عرفنا أن جده هذا كان جمالاً لعمرو بن قلع الكناني كما قيل. فكيف للجاحظ أن يفتخر بجده العبد الأسود الجمال، وينتصر للسود وأكثرهم من أصول غير عربية، وهو المعروف بتعصبه للعرب وموالاته لهم وانتسابه لكنانة إن لم يكن هو كنانياً أصلاً. ففي التقدير أن الدافع الأساسي الذي دفع الجاحظ إلى كتابة رسالته في: فخر السودان على البيضان هو التزامه بنهج ثابت، في رسائله وبعض كتاباته الأخرى أيضاً، وهذا المنهج قائم على رصد واقع السود في عصره وفق بناء حجاجي متماسك، وباستخدام أسلوب الازدواج العذب دون سجع متكلف، فجاءت الألفاظ موجزة واضحة فصيحة دالة على معانيها.

ولقد عرف الجاحظ بألوان من الكتابة أشهرها كتبه في النوادر والظرف، كالبخلاء

٢٤- ضيف، العصر العباسي الثاني، ص ٦٠٥.

ورسالة التربيع والتدوير، ورسائله الإخوانية كرسائله مع صديقه ابن الزيات، ورسائله الأدبية الكثيرة التي من أشهرها رسالته في: فخر السودان على البيضان، إن رصده الدقيق لواقع الحياة الاجتماعية، وتسجيله الرائع لمظاهر هذه الحياة الاجتماعية في العصر العباسي دفعه إلى الكتابة عن البخلاء والشطار والعيارين والعميان والبرصان والعرجان والحولان والجواري والغلمان والقيان والقواد والبغال وسائر أنواع الحيوان والطير والحجر والنبات وغيرها، وفي هذا السياق تأتي رسالته في: فخر السودان على البيضان. كما أن اعتماد الجاحظ على المنهج الحجاجي كان ظاهرة كتابية عامة ومميزة عند الجاحظ بفضل ميوله إلى مذهب المعتزلة القائم على أساس المناظرة والجدل في الوصول إلى الحقيقة. إن أسلوب المناظرة والجدل هذا اتبعه الجاحظ في الكثير من كتاباته وفي الكثير من رسائله، كما فعل في مناظرته المشهورة بين شخصيتين وهميتين خلقهما الجاحظ بأسلوبه الشيق، وهما شخصية معبد والنظام ومناظرتهما حول أيهما أفضل الكلب أم الديك؟ وهي في حقيقة رمزها مناظرة بين العرب والشعوبية، وكذلك مناظرته بين البعير والفيل، والمناظرة الأخرى بين الزرع والنخيل[٢٥] ونلاحظ أن الجاحظ في هذه المناظرات الثلاث قد انتصر للكلب والبعير والنخيل وهي المتعلقة بالعرب ضد الديك والفيل والزرع وهي المتعلقة بغير العرب، وتأتي رسالته في: فخر السودان على البيضان في سياق أسلوب المناظرة والحجاجية الذي اتبعه الجاحظ في كل هذه الرسائل والكتابات.

وهكذا نستطيع أن نقول إن الجاحظ قد كتب رسالته في: فخر السودان على البيضان ضمن منهج عام ثابت اتبعه في رسائله وفي بعض كتاباته، وهو منهج قائم على رصد دقيق لمظاهر الحياة الاجتماعية وفق بينة حجاجية وبأسلوب الازدواج الجاحظي من ناحية، ومن ناحية ثانية يبدو أن الجاحظ قد أحس بقيمة هؤلاء السود في عصره، وقوتهم وكثرة انتشارهم، وأهميتهم في تسيير الشؤون الاجتماعية والاقتصادية في مدن الدولة العباسية فرأى ضرورة الكتابة عنهم.

٢٥- هذه المناظرات جاءت في كتاب الحيوان للجاحظ.

وقد أشار إلى ذلك الدكتور شوقي ضيف بقوله: «وأكبر الظن أنه أول من أشاد بالسودان في عصره، وكأنما أصبح لهم شيء من الخطر في الحياة الاجتماعية العباسية[٢٦]».

ويشاء القدر أن تكون درجة خطر هؤلاء السود في ذروتها سنة ٢٥٥هـ، وهي السنة نفسها التي توفي فيها الجاحظ، ليقوموا بثورتهم المعروفة بثورة الزنج، التي «تدل على حيوية الإنسان الأسود، وعدم قبوله الظلم، بل ومقارعته لهذا الظلم في الوقت المناسب، ثم مسيرته في العنف إلى غير غاية[٢٧]».

ولقد كان الجاحظ دقيقاً وواعياً عندما جعل عنوان رسالته: فخر السودان على البيضان وليس فخر الحبشان على البيضان، لإدراكه أن السود في عصره، الذين حركوه بانتشارهم الكبير في مدن الدولة العباسية ولاسيما البصرة ليكتب عنهم، لم يكونوا جميعهم من السود الأحباش، بل إن السود الأحباش كانوا أقلية إذا ما قيسوا بالزنوج الذين جلبوا من شرقي إفريقية.

ولما كان الجاحظ قد استعمل أسلوب المناظرة والحجاج في رسالته: فخر السودان على البيضان، وهو أسلوب عرف عن الجاحظ في الكثير من رسائله وكتاباته، فلابد من الوقوف طويلاً عند الأدوات الفنية لهذه المناظرة أو بمعنى آخر مفردات البنية الدلالية لهذه المناظرة. فكما هو معروف عن أسلوب الجاحظ أنه أسلوب اعتمد فيه على الخروج من الموضوع الذي يتحدث فيه ليعود إليه بعد أن يتناول غيره بطريقة سلسلة عذبة جميلة، مبتعداً عن أسلوب تقسيم الموضوع إلى أبواب وفصول كما هي الحال عند ابن الجوزي في كتابه: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش، الآتي ذكره. لذا فإن الجاحظ قد داخل بين مفردات البنية الدلالية لرسالته: فخر السودان على البيضان، ولابد من حصر هذه المفردات ودراستها، ثم استخلاص منهج المعالجة في رسالة الجاحظ هذه.

٢٦ـ ضيف، العصر العباسي الثاني، ص ٦٠٥.
٢٧ـ بدوي، السود والحضارة العربية، ص ٢٠٢.

١ـ البنية الدلالية في رسالة الجاحظ

أولاً: المفاخرة بشخصيات سوداء:

اعتمد الجاحظ في فخر السودان على البيضان على إيراد الكثير من الشخصيات السوداء، ونشر أسمائهم في ثنايا رسالته، سواء كانت هذه الشخصيات عربية جاهلية وعربية إسلامية أو غير عربية وهذه الشخصيات هي :

١ـ آل أبي طالب/ ص ٢٠٩ .

٢ـ آل ياسر/ ص ١٩٣ .

٣ـ الأربعون الذين خرجوا بالفرات أيام سوار بن عبدالله القاضي/ ص١٩٥ .

٤ـ أفلح/ ص١٩٣ .

٥ـ امرأة عمرو بن شأس/ ص ٢٢٢ .

٦ـ بلال الحبشي/ ص ١٧٩ .

٧ـ الجحاف بن حكيم/ ص١٩٢ .

٨ـ جليبيب/ ص١٨١ .

٩ـ الحيقطان/ ص١٨٠ .

١٠ـ خفاف بن ندبة/ ١٩٢ .

١١ـ الذي ضرب عنق عيسى بن جعفر بعُمان/ ص١٩٥ .

١٢ـ رباح أخو بلال/ ص١٩٢ .

١٣ـ سعيد بن جبير/ ص١٧٩ .

١٤ـ السليك بن السلكة/ ص١٩٢ .

١٥ـ سنيح بن رباح/ ص ١٩٠ .

١٦ـ عامر بن فهيرة/ ص ١٩٢ .

١٧ـ عباس بن مرداس/ ص ١٩٢ .

١٨ـ عبدالله بن خازم السلمي/ ص ١٩٢ .

١٩ـ عبدالله بن عباس/ ص ٢٠٩ .

٢٠ـ عبيدالله بن أبي بكرة/ ص٢٢٥ .

٢١ـ عكيم الحبشي/ ص ١٩٥ .

٢٢ـ عمير بن الحباب وإخوته/ ص ١٩٢ .

٢٣ـ عنترة بن شداد/ ص ١٩٢ .

٢٤ـ الغداف صاحب عبدالله بن الحر/ ص ١٩٣ .

٢٥ـ فرج الحمام/ ص ١٨١ .

٢٦ـ كباجلا/ ص ١٩٣ .

٢٧ـ كعبويه صاحب المغيرة بن الفرز/ ص ١٩٣ .

٢٨ـ لقمان الحكيم/ ص ١٧٩ .

٢٩ـ مربح بن الأشرم/ ص ١٩٣ .

٣٠ـ المغلول بنوه/ ص ١٩٣ .

٣١ـ المقداد/ ص ١٨٠ .

٣٢ـ مكحول/ ص ١٨٠ .

٣٣ـ المنتجع بن نبهان/ ص ١٩٨ .

٣٤ـ مهجع/ ص ١٨٠ .

٣٥ـ النجاشي/ ص ١٨٣ .

٣٦ـ هراسة بن شداد/ ص ١٩٢ .

٣٧ـ وحشي/ ص ١٨٠ .

٣٨ـ ولد عبدالمطلب العشرة/ ص ٢٠٩ .

ولم تأت أسماء هذه الشخصيات السوداء مرتبة أبجدياً أو هجائياً، كما أنها لم تأت في سياق واحد تحت فصل واحد أو باب واحد مستقل، بل أتت متفرقة متباعدة في ثنايا أشعار مختلفة وأخبار كثيرة. ولم يورد الجاحظ أخبار كل شخصية من هذه الشخصيات بشكل متكافىء، فعند تطرقه لآل ياسر ـ مثلاً ـ أصحاب المواقف والتضحيات والبطولات التي عانوا منها ما عانوه في أول الدعوة النبوية يكتفي الجاحظ بقوله: «ومنهم آل ياسر»/ ص١٩٣، في حين يخصص ستة أسطر تقريباً للقمان الحكيم وستة أخرى لسعيد بن جبير، أما الحيقطان فيأخذ النصيب الأكبر في الرسالة كلها تقريباً.

وقد يشمل الجاحظ أكثر من شخصية في سياق واحد كما فعل مع آل ياسر، وولد عبدالمطلب العشرة، والأربعين الذين خرجوا بالفرات، وآل أبي طالب، والمغلول وبنيه، وعمير بن الحباب وإخوته، إذ جاءت أسماؤهم عابرة ومجردة في سياق المقولات، ويذهب الجاحظ أحياناً إلى وصف الشخصية إذا لم يكن يعرف اسمها كالذي ضرب عنق عيسى بن جعفر بعمان، أو يضيف الشخصية إلى أخرى كامرأة عمرو بن شأس. كما نلاحظ وبوضوح اعتماد الجاحظ على شخصيات عربية من أمهات سود ويفخر بهم كما فعل مع عنترة بن شداد وأخيه هراسة، وخفاف بن ندبة، وعباس بن مرداس، والسليك بن السلكة، وعبدالله بن خازم السلمي، وعمير بن الحباب وإخوته، والجحاف بن حكيم. ولا أعرف السبب في عدم ذكر الجاحظ لأسماء نساء سود بارزات مثل أم أيمن حاضنة النبي صلى الله عليه وسلم ومرضعته، وبركة جارية أم حبيبة، وبريرة مولاة عائشة وسعيرة مولاة بني أسد ونبعة جارية أم هانئ بنت أبي طالب، وهن نساء مشهورات لا أظن أن الجاحظ لم يسمع بهن. وعلى أية حال فقد جاءت هذه الأسماء كلها بسياقاتها المختلفة لتدعم رأي الكاتب في انتصاره للسودان على البيضان في أسلوب الازدواج الجاحظي المتميز والقائم على أساس المناظرة والاحتجاج.

ثانياً : المفاخرة بالشعر والشعراء :

اعتمد الجاحظ في رسالته : فخر السودان على البيضان على مادة شعرية مكثفة لشعراء من مختلف العصور سواء العصر الجاهلي أو الإسلامي أو الأموي أو العباسي ليدعم رأيه في فخر السودان على البيضان . كما اعتمد الجاحظ أيضاً على مواقف شعراء سود ثاروا في وجه من حاول التقليل من شأنهم . ويمكن تتبع هذه المادة الشعرية وأسماء الشعراء من أول الرسالة إلى آخرها كما يلي :

١ـ الحيقطان :

ويرجع الجاحظ بذاكرته إلى العصر الأموي ، ويقف طويلاً عند قصيدة لشاعر أسود يسمى الحيقطان ، وقد غضب غضباً شديداً عندما سمع جريراً يذكره بسوء حينما قال :

كأنه لما بدا للناس
(. . .) حمار لفَّ في قرطاسِ

فرد عليه الحيقطان بقصيدة «تحتج بها اليمانية على قريش ومضر ، ويحتج بها العجم والحبش على العرب ، وكان جرير رآه يوم عيد في قميص أبيض وهو أسود»[٢٨] حيث يقول :

لئن كنتُ جَعدَ الرأسِ والجلدُ فاحمٌ
فإني لسبطُ الكفِّ والعرضُ أزهرُ
وإنَّ سوادَ اللون ليس بضائري
إذا كنتُ يومَ الرَّوع بالسَّيف أخطِرُ
فإن كنتَ تبغي الفخرَ في غير كنهه
فرهطُ النجاشي منك في الناس أفخرُ
تأبّى الجلندَى وابنُ كسرى وحارثٌ
وهَوذةُ والقِبطيُّ والشيخُ قيصرُ

٢٨ـ الجاحظ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

وفـــاز بهـــا دون الملوك ســـعـــادةً
فـــــدام له الملكُ المنيعُ الموقَّـــــرُ
ولقـــمـــان منهم وابنه وابنُ أمِّـــه
وأبرهةُ الملك الذي ليس يُنكَـــرُ
غـــزاكم أبو يكســـومَ في أمِّ داركم
وأنتم كَـقـبْصِ الرَّملِ أو هو أكـثـرُ
وأنتم كطيـــرِ الماءِ لما هوى لهـــا
ببلقـعـةٍ، حُـجنُ المخـالبِ أكـدرُ
فلو كـان غـيـر الله رامَ دفـاعـه
علمتَ وذو التَّـجـريب بالناس أخـبـرُ
ومـا الفـخـرُ إلا أن تبـيـتـوا إزاءه
وأنتم قـريبٌ ناركم تتـسـعَّـرُ
ويَدلفُ منكم قـائد ذو حـفـيظة
نُكافـحـه طوراً وطورا يُدبَّـرُ
فـأمـا التي قُلتم فـتلكم نُبـوَّةٌ
وليس بكم صُـونَ الحـرامُ المسـتَّـرُ
وقـلـتم لَـقَـاحٌ لا نـؤدِّي إتـاوه
فـإعطاءُ أريانٍ من الفَـرِّ أيسـرُ
ولو كـان فـيـهـا رغـبـةٌ لمتـوَّجٍ
إذاً لأتتـهـا بالمقَـاول حـمـيـرُ
وليس بهـا مـشـتيً ولا مـتـصـيَّف
ولا كـجُـؤاثا مـاؤها يتـفـجَّـرُ
ولا مـرتعٌ للعين أو مـتـقنَّص
ولكنَّ تجـراً، والتـجـارةُ تُحْـقَـرُ

ألستَ كليـــبـــيـــاً وأمُك نعـــجـــةً
لكم في سِمـان الضَّـان عار ومَفخر[٢٩]

وهكذا نرى أن الحيقطان قد تجاوز جريراً، الذي هجاه في بيت من الشعر، لينظم هذه القصيدة بما فيها من صرخات غاضبة مدوية منتصراً للأحباش السود على العرب، فيمدح الأحباش ويخصهم بالفضائل ويفخر بسواد لونه المقترن بالكرم ونقاء العرض، ويفخر بلقمان والنجاشي، ولا يكتفي بذلك بل عمد إلى العرب ليذمهم ويسلبهم مكارمهم، بل يتمادى في ذلك إلى حد السخرية بمكة وأهلها العرب، الذين لم يستطيعوا الدفاع عن بلدهم وأنفسهم، ومكة عند الحيقطان لا قيمة لها، ولو كانت لها قيمة، على حد زعمه، لغزاها أهل اليمن. وطالب الحيقطان العرب بعدم الفخر بظهور الإسلام على أرضهم وخروج النبي صلى الله عليه وسلم منهم، لأنها نبوة تأتي من السماء قدراً من الله، ليس للبشر فيها شأن أو تدبير. ثم حقَّر الحيقطان ماء مكة وجعل ماء جؤاثا، وهي عين بالبحرين، أعذب من ماء مكة، بعد أن عيَّر أهل مكة بأنه لا مشتى ولا مصيف عندهم، فهم يصيفون بالطائف ويشتون بجدة. ويبدو من ذلك أن هذا الصوت يتعدى الهجاء إلى الهجوم على العرب، ويتعدى الفخر بالنفس والجنس واللون إلى الثورة الغاضبة وتحقير الخصم. وبذلك يعد الحقيطان «هو صاحب الصوت الأول الحقيقي الذي يؤرخ للنبرة الجديدة التي بدأ يتحدث بها الشعراء السود في الحياة العربية»[٣٠].

٢ـ سنيح بن رباح:

ويقف الجاحظ أيضاً عند الشاعر الأموي سنيح بن رباح ويستعين بموقفه في الفخر بالسودان على البيضان، كما يستعين بقصيدته التي هجا بها جريراً وافتخر

٢٩ـ الجاحظ، ص١٨٣ ـ ١٨٥ .
٣٠ـ بدوي، السود، ص ١٩١ ، والشعراء السود، ص ١٥٠ .

عليه بالزنج. فقد نظم جرير قصيدة طويلة هجا بها الأخطل وقومه من بني تغلب وافتخر فيها بنفسه وبقومه من بني كلب حيث يقول في مطلعها:

حيّ الغـــداة بـرامـــة الأطلالا
رسـمـاً تحـمل أهله، فـأحـالا [٣١]

ثم يقول في السابع والأربعين:

لاتطلبن خـــؤولة في تغلب
فـالزنج أكـرم منهم أخـوالا

وقد اعتبر سنيح بن رباح هذا نوعاً من التحقير للزنوج والتقليل من شأنهم فهجا جريراً بقصيدة يقول فيها:

مـا بالُ كلبِ من كُليبٍ سبَّنا
إن لـم يـوازن حاجباً وعقالا

إن امـرأً جـعل المراغـةَ وابنَها
مـثلَ الفـرزدق جـائر قـد فـالا

والزنجُ لو لاقيتَهم في صفِّهم
لاقـيتَ ثمَّ جحاجحاً أبطالا

فسل ابنَ عمرو حين رامَ رماحهم
أرأى رمـاح الزَّنـج ثـمَّ طـوالا

فـجـعـوا زيـاداً بابـنه وتنازلـوا
لمـا دعـوا للنـزال ثـمَّ نـزالا

ومـرَبطين خـيـولَهم بفنائهم
وربطتَ حـولك شَـيِّـهاً وسخالا

كـان ابـن نَدبَةَ فـيكمُ مـن نجلنا
وخُـفـافٌ المتحـمِّلُ الأثـقـالا

٣١- جرير، الديوان، ص ٣٦٠.

وابنا زُبيـــبـــة : عَنتـــرٌ وهراســـةٌ
مـــا إن نرى فـــيكم لهم أمـــثـــالا
سَل ابنَ جَـــيـــفـــر حين رام بلادنا
فـــرأى بغـــزوتهم عليـــه خَـــبـــالا
وسليكٌ الليثُ الهـــزَبرُ إذا عَـــدا
والقَـــرمُ عـــبَّـــاسٌ عَلوكَ فَـــعـــالا
هذا ابن خـــازمٍ ابنُ عَـــجلى منهمُ
غلبَ القـــبـــائل نجـــدةً ونَوالا
أبناءُ كلِّ نجـــيـــبـــة لنجـــيـــبـــة
أســـدٌ تُربِّب عندَها الأشـــبـــالا
فلنحنُ أنجبُ من كُليبَ خُـــؤولةً
ولأنت ألأمُ منهم أخـــوالا
وبنو الحُـــبـــاب مَطَاعن ومَطاعم
عند الشِّـــتـــاء إذا تَهبُّ شَـــمَـــالا(٣٢)

فإذا كان الدافع الذي أغضب الحيقطان هو شبه شخصي فإن سب الزنج عامة كان الدافع وراء غضب سحيم، إذ انبرى يشتم جريراً فهو عنده «كلب من كليب» ثم يفتخر عليه بالزنج وبقوتهم وبطولاتهم ورماحهم وبأسهم في القتال وقد ربطوا خيولهم حولهم فيما ربط جرير حوله الشياه والسخال. ثم عير سنيح العرب وذكرهم بهزيمة ابن عمرو وهو حفص بن زياد بن عمر العتكي الذي قتله رباح شار الزنجي، كما ذكرهم بهزيمة ابن جيفر وهو النعمان بن جيفر بن عباد بن جيفر بن الجلندي الذي قتل في بلاد الزنج، ثم افتخر سنيح برجال سود وبأفعالهم مثل: خفاف بن ندبة والأخوين عنترة وهراسة والسليك بن السلكة الشاعر الصعلوك

٣٢ـ الجاحظ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

صاحب لامية العرب وعباس بن مرداس وعبدالله بن خازم السلمي وعمير بن الحباب وإخوته، ثم افتخر سنيح بعموم السود أبناء النجيبات الأبطال في الحروب، ثم ختم قصيدته بالفخر بنفسه وبقومه وتحقير قوم جرير.

وهي قصيدة تختلف عن قصائد الهجاء المعروفة وتتعداها لتفصح عما بداخل الشاعر الأسود من غضب تجاه من يحاول تحقير السود أو التقليل من شأنهم.

٣ـ عكيم الحبشي:

ويقف الجاحظ أيضاً عند شاعر ثالث من الشعراء السود في العصر الأموي وهو عكيم الحبشي الذي سمع حكيم بن عياش الكلبي يقول:

لا تفخرن بخال من بني أسد
فإن أكرم منها الزنج والنوب

فأحس عكيم الحبشي بأن في ذلك إهانة للسود فرد عليه قائلاً:

ويوم غُمدان كنَّا الأسد قد علموا
ويومَ يثرب كنَّا فِحلةَ العربِ
وليلةَ الفيل إذ طارت قلوبهمُ
وكلُّهم هاربٌ موفٍ على قَتبِ
منا النَّجاشي وذو العقصين صهركمُ
وجدُّ أبرهةَ الحامي أبي طَلَبِ
هَبْني غفرتُ لعدنانٍ تهكُّمَهمْ
فَمَا لحميرَ والمقوال في النسبِ
حَمَّارة جمعت من كلِّ محربة
جَمْعَ الشُّبيكة نُونَ الزاخر اللَّجبِ(٣٣)

٣٣ـ الجاحظ، ص ١٩٩.

وهكذا يفخر الشاعر بيوم غمدان ويوم يثرب، ويهجو العرب الذين فزعوا وطارت قلوبهم عندما حاول أبرهة الحبشي هدم الكعبة بالفيلة. ثم يفخر الشاعر بالنجاشي ملك الحبشة الذي أسلم وصلى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما مات صلاة الغائب، ويعير العرب بمصاهرة ذي القرنين.

وهكذا فقد استعان الجاحظ بثلاثة شعراء هجوا العرب وانتصروا للسود، ووظَّفَ أشعارهم مادة علمية راقية في فخر السودان على البيضان.

وبالإضافة إلى ما تقدم فقد استعان الجاحظ بأبيات متفرقة من الشعر في تفضيل اللون الأسود، سواء في الإنسان أو في أشياء مختلفة كالنخيل الأسود والشفاه السود والظل البارد الأسود وغيرها، كما سيأتي بيانه بما يلي:

١ـ فعند الحديث عن التمر الأسود الحلو والنخيل القوي ذي الجذوع السود يستشهد الجاحظ بأبيات للأنصاري حيث يقول:

أدينُ وما ديني عليَّ بمغرمٍ
ولكنْ على الشُّمِّ الطوال القراوحِ
على كل خَوَّارٍ كأنَّ جذوعَها
طُلينَ بقارٍ أو بدمٍّ ذبائح(٣٤)

٢ـ وعند الحديث عن الشفاه السود يقول الجاحظ: «ومن أطيب ما في المرأة وأشهاه شفتاها للتقبيل، وأحسن ما يكونان إذا ضارعتا السواد، وقال ذو الرمة:

لمياءُ في شفتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ
وفي اللثات وفي أنيابها شَنَبُ(٣٥)

٣ـ وعند الحديث عن الظل البارد الأسود يقول الجاحظ: «وأطيب الظل وأبرده ما كان أسود».

٣٤ـ الجاحظ، ص ٢٠٤.
٣٥ـ الجاحظ، ص ٢٠٥.

وقال الراجز:

سود غرابيب كأظلال الحجر[٣٦]

٤ـ وعند الحديث عن الأحجار الكريمة يقول الجاحظ: «وأصلب الأحجار سودها.

وقال أبو دهبل الجمحي يمدح الأزرق المخزومي، وهو عبدالله بن عبد شمس بن المغيرة:

فإنَّ شكرك عندي لا انقضاءَ له
مادامَ بالجَزْعِ من لُبانَ جُلمودُ

أنت الممَدَّحُ والمُغْلَى به ثمناً
إذْ لا يعاتب صخرُ الجندلِ السودُ[٣٧]»

٥ـ وعند الحديث عن فخر العرب بسواد اللون قال الجاحظ: «والعرب تفخر بسواد اللون... والسود عند العرب الخضر. قال الشماح بن ضرار:

وراحتَ رَواحاً من زَوردَ فنازعَتْ
زُبالةَ جلباباً من اللَّيلِ أخضرا

وقال الزاجر:

حتى انتصابي الصُّبح من ليل خَضِرْ
مثلَ انتضاء البطل السيفَ الذكَرْ

وهم يسمون الحديد أخضر لأنه صلب، لأن الأخضر أَسود.

وقال الحارث بن حلزة:

إذا رفَعنا الجمالَ من سَعَف البحـ
رين سيراً حتى نَهاها الحِساءُ

٣٦ـ الجاحظ، ص ٢٠٥.
٣٧ـ الجاحظ، ص ٢٠٧.

فـــــهـــــزمنا جـــــمع ابن أمّ قَطَام
وله فـــــارســـــيـــــةٌ خـــــضـــــراءُ

وقال المحاربي وهو يفخر بأنه من الخضر :
في خُـضـر قـيسٍ ثماني كل ذي فَـخَـر
صـعبِ المقـادة آبي الضَّـيم شـعـشـاعِ

وبنو المغيرة خضر بن مخزوم . قال عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي . ويقال إنها للفضل بن العباس اللهبي :
وأنا الأخـــــضـــــر من يعـــــرفُني
أخـــضـــرُ الجلدةِ في بَيت العـــربْ
مَن يســـاجلْني يُســـاجلْ مـــاجـــداً
يملأ الدَّلوَ إلى عَـــــقْـــــد الكَرَبْ
وخضر غسان بنو جفنة الملوك . قال الغساني :
إنَّ الخـضـــارمـــةَ الخَـضـــر الذين وَدَوا
أهـلَ البَـــــريصِ ثماني منهـمُ الحكـمُ
وقد ذكر حسان أو غيره الخضر من بني عكيم حين قال :
ولستَ من بني هاشم في بيتِ مكرمـــة
ولا بني جُـمَح الخُضـرِ الجلاعـيـدِ[٣٨] »

٦ـ ولما تطرق الجاحظ إلى النساء الزنجيات أورد خبر الفرزدق الذي أنشد ، بعد زواجه من أم مكية الزنجية ، يقول :
يـاربَّ خَـــــــودٍ من بـنـات الـزَّنج
تَـمـــــشي بتنُّور شـــــديـدِ الوَهـجِ
أختمَ مثل القدح الخَلَنْجِ[٣٩]

٣٨ـ الجاحظ ، ص ٢٠٧ـ٢٠٩ .
٣٩ـ الجاحظ ، ص ٢١٤ .

ثم يسوق الجاحظ خبر دنانير بنت كعبويه الزنجي التي عند أعشى سليم، وهي شديدة السواد، رآها ذات يوم وقد خضبت يدها بالحناء واكتحلت بالإثمد فقال:

تخـــضب كـــفَّـــاً بتكتْ من زندها
فـــتـــخـــضب الحنَّاءُ من مـــســـوَدِّها
كـــأنَّهـــا والكُحلُ في مِـــرودِّها
تكحلُ عـــينيـــهـــا ببـــعضِ جلدها

فلما سمعت ذلك قالت:

وأقـــبحُ من لوني سَـــوادُ عـــجـــانه
على بَشَـــرٍ كـــالقلبِ أو هو أنصعُ

فسموه أسود، وصاح به الصبيان فطلقها. وقد كان صبيحة عرسها قال:

إنَّ الدَّنانير تكون سودا

فقالت:

بيـــاض الرأس أقـــبح من ســـوادي
وشَـيب الحـاجـبين هو الفُـضـوحُ(٤٠)

٧ـ ثم استشهد الجاحظ ببيت شعر للأعشى عند الفخر بكثرة السواد بقوله:

ولستَ بالأكـــثـــر منه حـــصىً
وإنما الـعـــــــــزَّةُ لـلـكـاثـرِ(٤١)

٨ـ وفي الفخر بسواد الهيئة والزي والصناعات يستعين الجاحظ بما ذكر الشاعر من سواد اليمانية، حين مدح أسيلم بن الأحنف الأسدي بقوله:

أســـيلِمُ ذاكم لا خَـــفَـــا بمكانه
لـعـين تـداحي أو لأذنٍ تَـســـــمَّع

٤٠ـ الجاحظ، ص ٢١٤ـ٢١٥.
٤١ـ الجاحظ، ص ٢١٨.

من النَّفَــر الشُّمِّ الذين إذا انتــمــوا
وهابَ الرجالُ حَلقَةَ الباب قعقعوا

جلا الأذفرُ الأحوَى من المسك فرقَه
وطيبُ الدِّهان رأســـه وهو أنزعُ

إذا النَّفرُ السود اليمانونَ حاولوا
له حَوكَ بُردَيه أرقُّوا وأوسعوا(٤٢)

ثم يستشهد الجاحظ بأبيات أخرى في فخر السودان عندما عاب بعض البيضان عبد بني جعدة :

وقد عابَ لوني أقوامٌ فقلتُ لهم
ما عابَ لوني إلا مفرطُ الحُمُقِ

إن كان لونيَ فيهُ دُعجةٌ كَلَفٌ
حَزنَ الإهابِ فإنِّي أبيضُ الخلقِ

أرضِي الصَّديقَ وأحمِي الظُّعنَ معترضاً
صدرَ القناةِ وأكني كنه السَّرَقِ(٤٣)

٩ـ وفي صفة أبناء الحبشيات والزنجيات يورد الجاحظ قول عمرو بن شأس :

ألم يأتِها أني صحوتُ وأنني
تخشَّعتُ حتى ما أعارِم من عَرَمْ

وأطرِقُ إطراقَ الشُّجاعِ، ولو يرى
مساغاً لنابيه الشُّجاع لقد أزَمْ

أرادت عِراراً بالهوان ومن يُرِدْ
عِراراً لعمري بالهوان فقد ظَلَمْ

٤٢ـ الجاحظ، ص ٢٢١ .
٤٣ـ الجاحظ، ص ٢٢١ـ٢٢٢ .

وإن عـــراراً إن يكن غـــيـــرَ واضح
فـــإني أحبُّ الجَـــونَ ذا المنكب العَـــمَمْ

فـــإن كنت مني أو تحـــبّينَ شـــيـــمـــتي
فكوني له كـــالسَّـــمْنِ رُبَّت له الأدَمْ

وإلا فَـــبِـــيني مـــثل مـــا بانَ راكبٌ
تزوَّد خِـــمـــســاً ليس في سَـــيـــره أتَمْ(٤٤)

١٠ـ ويستشهد الجاحظ بقول عبدالله بن خازم في عبيد الله بن أبي بكرة الذي وصفه عبدالملك بن مروان بقوله: الأدغم سيد أهل المشرق حيث يقول:

حَبَشيٌّ حَبشتْهُ حَبَشَهْ(٤٥)

وهكذا نلاحظ كيف وظف الجاحظ الشعر توظيفاً فنياً ناجحاً إلى حد بعيد ليستخدمه مادة علمية لرسالته في فخر السودان على البيضان في أسلوب الازدواج المتميز القائم على أساس المناظرة والحجاج في الانتصار للون الأسود على الأبيض. وقد اختار الجاحظ نماذجه الشعرية اختياراً موفقاً لبيان فضل اللون الأسود على الأبيض المتمثل في أفضلية النخيل الأسود الجذوع والشفاه السود والظل البارد الأسود والأحجار السوداء ولون البشرة الأسود والزنجيات والنساء السود والتفاخر بكثرة السود وهيبة سواد الهيئة والزي. ولم يستعن الجاحظ بشعر عصر معين أو شاعر واحد بل أخذ نماذجه الشعرية من مختلف العصور: الجاهلية والإسلامية والأموية والعباسية، ليؤكد أن الفخر باللون الأسود قديم ومنتشر منذ العصر الجاهلي حتى زمنه، الذي أضحى فيه السود قوة لها شأن في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

٤٤ـ الجاحظ، ص ٢٢٢ـ٢٢٣.
٤٥ـ الجاحظ، ص ٢٢٥.

وعندما كان الأمر ضرورياً فقد استشهد الجاحظ بقصائد كاملة كما فعل مع الحيقطان وسنيح بن رباح وعكيم الحبشي، فيما استشهد في مواضع أخرى بأبيات قليلة أو بيت واحد من الشعر بما يتناسب مع رسالته من حيث الحجم وبما يؤكد ما ذهب إليه من فخر للسودان على البيضان. ولم تأت هذه المادة الشعرية صعبة وعرة ثقيلة بل سلسة خفيفة، انتشرت في ثنايا الرسالة انتشاراً، لتجعل منها قطعة أدبية رائعة.

ثالثاً: المفاخرة بصفات السود:

ويركز الجاحظ في رسالته على الصفات الحميدة للسود، الجسمانية منها والأخلاقية، ويمكن تتبع هذه الصفات في أماكن متفرقة من الرسالة وهي:

١ـ قوة البدن:

ولما كان العرب يكبرون الرجل قوي البدن ويضعونه في مكانة سامية لماله من دور في القتال، فقد خص الجاحظ السود بقوة البدن وامتدحهم بذلك بقوله: «وليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعم منهم فيهما. . .»(٤٦).

٢ـ حسن الخلق:

ويبين الجاحظ حسن خلق السود وقلة أذاهم وطيب نفوسهم بقوله: «والزنجي مع حسن الخلق وقلة الأذى، لا تراه أبداً إلا طيب النفس، ضحوك السن، حسن الظن، وهكذا هو الشرف»(٤٧).

٣ـ السخاء والكرم:

ويصف الجاحظ السود بالكرم والسخاء وهي صفات عربية فيقول: «والناس مجمعون على أنه ليس في الأرض أمة السخاء فيها أعم، وعليها أغلب من الزنج، وهاتان الخلتان لم توجدا قط إلا في كريم»(٤٨).

٤٦ـ الجاحظ، ص ١٩٥ .
٤٧ـ الجاحظ، ص ١٩٦ .
٤٨ـ الجاحظ، ص ١٩٥ .

ثم يقول في موضع آخر: «وهم شجعان أشداء الأبدان أسخياء، وهذه هي خصال الشرف»[٤٩].

٤ـ الفصاحة:

والفصاحة عند العرب من الصفات الحميدة المرتبطة بالشجاعة والفروسية والحرب، وقد خص الجاحظ السود بالفصاحة وكأنما يرد على الذين يصفونهم بالفهاهة. وقد افتخر الجاحظ بفصيحين من السود هما: عكيم الحبشي، وكان أفصح من العجاج، والمنتجع بن نبهان وهو أفصح من رؤبة[٥٠].

٥ـ الشجاعة:

والشجاعة من الصفات العربية الأصيلة أيضاً التي حرص الجاحظ على ربطها بالسود، وقد أورد الجاحظ أخباراً وأشعاراً عن شجاعة السود منها:

أ ـ قوله: «وهم شجعاء أشداء الأبدان أسخياء، وهذه هي خصال الشرف»[٥١].

ب ـ كما أورد الجاحظ أبياتاً افتخر فيها عكيم الحبشي على حكيم بن عياش الكلبي ذكر فيها شجاعة السود كما مر، وأولها:

ويوم غمدان كنا الأسد قد علموا
ويوم يثرب كنا فحلة العرب[٥٢]

٦ـ العدالة والنبل:

ويصف الجاحظ السود بالعدالة والنبل، ويورد قصة فرج الحجام الذي كان من أهل العدالة، والمقدمين في الشهادة[٥٣].

٤٩ـ الجاحظ، ص ١٩٥.
٥٠ـ الجاحظ، ص ١٩٨.
٥١ـ الجاحظ، ص ١٩٥.
٥٢ـ الجاحظ، ص ١٩٩.
٥٣ـ الجاحظ، ص ١٨١ـ١٨٢.

٧- قوة الباه وكثرة الإنجاب:

وفي مفاخرة طريفة للسود على البيض يفاخر الجاحظ بالسود الذين يعيرون البيض بأنهم لا ينشطون لطلب النسل من الزنجيات، والزنجية أيضاً من الزنجي أسرع لقاحاً منها من الأبيض. ثم يعير السود البيض بأنهم لا يكادون يعدون ممن ولد له من صلبه مائة ولد. ثم يفخر بالسود الزنج لأن المرأة الزنجية تنجب خمسين بطناً في كل بطن اثنين في خمسين سنة[٥٤].

٨- الحرص على النساء:

والمرأة شرف الرجل العربي ومن هذا المفهوم يؤكد الجاحظ حرص السود على نسائهم فيقول مفاخراً بذلك: «والزنج أحرص من خلق الله على نسائهم، ونساؤهم لهم كذلك، وهن أطيب من غيرهن»[٥٥].

٩- طيب رائحة الفم:

ومن الصفات الحميدة في المرأة، والرجل على السواء، طيب رائحة الفم وكثرة الريق وبذلك يفاخر السودان على البيضان ويقول الجاحظ بذلك: «قالوا: وأطيب الأفواه نكهة، وأشدها عذوبة، وأكثرها ريقاً، أفواه الزنج»[٥٦].

١٠- كثرة السود في العالم:

والعرب تتفاخر بالكثرة والمنعة لذا فالجاحظ يركز على مفاخرة السود على البيض بأنهم أكثر[٥٧].

١١- الرقص والغناء:

ويفخر الجاحظ بأن الزنج «أطبع الخلق على الرقص الموقع الموزون، والضرب بالطبل على الإيقاع الموزون، من غير تأديب ولا تعليم»[٥٨].

٥٤- الجاحظ، ص ٢١٣.
٥٥- الجاحظ، ص ٢١٣.
٥٦- الجاحظ، ص ٢١٥.
٥٧- الجاحظ، ص ٢١٥-٢١٦.
٥٨- الجاحظ، ص ١٩٥.

كما أن «من مفاخر الزنج حسن الخلق، وجودة الصوت، وإنك لتجد ذلك في القيان إذا كنَّ من بنات السند»[٥٩].

١٢ـ حسن الطبخ:

ولم يفت الجاحظ أن يفاخر بأن السود أطيب طبخاً من البيض فيقول: «وخصلة أخرى: أنه لا يوجد في العبيد أطبخ من السندي، هوأطبع على طيب الطبخ كله»[٦٠].

١٣ـ الأمانة:

والأمانة أيضاً من الخصال العربية القديمة التي حرص الجاحظ على ربطها بالسود ولاسيما وهو يعيش في مجتمع ثري تتعدد فيه الأجناس والأصول وتصبح فيه الأمانة خصلة حميدة نادرة، وفي ذلك يقول الجاحظ: «ومن مفاخرهم أن الصيارفة لا يولون أكيستهم وبيوت صروفهم إلا السند وأولاد السند، لأنهم وجدوهم أنفذ في أمور الصرف، وأحفظ وآمن. ولا يكاد أحد أن يجد صاحب كيس صيرفيٍّ ومفاتيحه ابن رومي ولا ابن خراساني[٦١].

وهكذا لم يكد الجاحظ يترك صفة من الصفات الحميدة إلا وألصقها بالسود، سواء كانت صفات جسمانية أم أخلاقية أم مهنية، مفضلاً بذلك السود على البيض بأسلوب الازدواج الرائع والتميز القائم على الحجاجية والمناظرة. مع حرص الجاحظ على إيراد كل الصفات العربية التي يجعلها الإنسان العربي وربطها بالإنسان الأسود في محاولة للانتصار له والمفاخرة به.

رابعاً: المفاخرة بفضل اللون الأسود:

يقول الجاحظ: «وليس لون أرسخ في جوهره وأثبت في حسنه من سواد»[٦٢].

٥٩ـ الجاحظ ٢٢٤

٦٠ـ الجاحظ، ص ٢٢٤.

٦١ـ الجاحظ، ص ٢٢٤.

٦٢ـ الجاحظ، ص ٢٠٦.

ومن هنا يمضي الجاحظ لينثر في رسالته مفردات البنية الدلالية المتعلقة بفضل اللون الأسود في الإنسان كان أو في الحيوان أو في الزرع أو في المعادن أو غيرها كما يلي :

١ـ **الإبل :** وهي تفصيله للسود من الإبل يقول الجاحظ : «والسواد أبداً أهول . وإن العرب لتصف الإبل فتقول : الصهب سرع، والحمر غزر، والسود بهي . فهذا في الإبل»[٦٣] .

٢ـ **الآبنوس :** وعن الآبنوس يقول الجاحظ مفاخراً : «وليس في الأرض عود أحسن خشباً ولا أغلى ثمناً، ولا أثقل وزناً ولا أسلم من القوادح، ولا أجدر أن ينشب فيه الخط من الآبنوس»[٦٤] .

٣ـ **الإثمد :** ويفاخر الجاحظ بسواد الإثمد قائلاً : «وأكرم الأكحال الإثمد، وهو أسود»[٦٥] .

٤ـ **الأسد :** ويقول عن الأسد مفاخراً : «والأسد الأسود لا يقوم له شيء»[٦٦] .

٥ـ **البقر :** ويقول عن البقر : «والبقر السود أحسن وأبهى، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى»[٦٧] .

٦ـ **التمر :** ويفاخر الجاحظ بالتمر الأسود قائلاً : «وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الأسود، ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر»[٦٨] .

٧ـ **الجبل :** ويقول الجاحظ مفاخراً بالجبل الأسود : «وكل جبلٍ وكل حجرٍ إذا كان أسود كان أصلب صلابة وأشد يبوسة»[٦٩] .

٨ـ **الحجر :** وبالإضافة إلى قوله السابق في الجبل والحجر يفاخر الجاحظ بأن الحجر

٦٣ـ الجاحظ، ص ٢٠٣ .
٦٤ـ الجاحظ، ص ٢٠٤ .
٦٥ـ الجاحظ، ص ٢٠٥ .
٦٦ـ الجاحظ، ص ٢٠٣ .
٦٧ـ الجاحظ، ص ٢٠٣ .
٦٨ـ الجاحظ، ص ٢٠٣ .
٦٩ـ الجاحظ، ص ٢٠٣ .

الأسود من الجنة[٧٠].

٩ـ **حدقة العين:** ويقول الجاحظ: «وأكرم ما في الإنسان حدقتاه، وهما سوداوان»[٧١].

١٠ـ **الحديد:** ويفاخر الجاحظ بالحديد قائلاً: وهم يسمون الحديد أخضر لأنه صلب، لأن الأخضر أسود»[٧٢].

١١ـ **الخضرة:** وعن الخضرة يقول: «وأحسن الخضرة ما ضارع السواد. قال الله جل وعلا: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ ثم قال لما وصفهما وشوق إليهما (مدهامتان) قال ابن عباس: خضراوان من الري سوداوان»[٧٣].

١٢ـ **الخيل**: ويقول مفاخراً بالخيل الدهم: «ودهم الخيل أبهى وأقوى»[٧٤].

١٣ـ **سويداء القلب:** وفيها يقول الجاحظ: «وأنفس ما في الإنسان وأعزه سويداء قلبه، وهي علقة سوداء تكون في جوف فؤاده، تقوم في القلب مقام الدماغ من الرأس»[٧٥].

١٤ـ **الشاء:** ويقول الجاحظ فيها: «وسود الشاء أدسم ألباناً وأكثر زبداً»[٧٦].

١٥ـ **الشفاه:** وعن الشفاه يقول: ومن أطيب ما في المرأة وأشهاه شفتاها للتقبيل، وأحسن ما يكونان إذا ضارعتا السواد»[٧٧].

١٦ـ **الشَّعر:** وعن جمال الشعر يقول الجاحظ: «والإنسان أحسن ما يكون في العين مادام أسود الشعر، وكذلك شعورهم في الجنة»[٧٨].

٧٠ـ الجاحظ، ص ٢١٩.
٧١ـ الجاحظ، ص ٢٠٥.
٧٢ـ الجاحظ، ص ٢٠٨.
٧٣ـ الجاحظ، ص ٢٠٤.
٧٤ـ الجاحظ، ص ٢٠٣.
٧٥ـ الجاحظ، ص ٢٠٥
٧٦ـ الجاحظ، ص ٢٠٣.
٧٧ـ الجاحظ، ص ٢٠٥.
٧٨ـ الجاحظ، ص ٢٠٥.

١٧ـ الظل: ويقول عن الظل: «وأطيب الظل وأبرده ما كان أسود»[٧٩].

١٨ـ العنبر المسك: ويفخر الجاحظ بالعنبر والمسك فيقول: «وأكرم العطر المسك والعنبر وهما أسودان»[٨٠].

١٩ـ الغالية: ويفاخر الجاحظ بالغالية على لسان السود فيقول: «وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا. منها الغالية، وهي أطيب الطيب وأفخره وأكرمه»[٨١].

٢٠ـ الكبد: وفيها يقول: «وأنفع ما في الإنسان له كبده التي بها تصلح معدته، وينهضم طعامه، وبصلاح ذلك قام بدنه، والكبد سوداء»[٨٢].

٢١ـ الليل: ويفاخر الجاحظ بسواد الليل فيقول: «وجعل الله الليل سكناً وجماماً، والنهار للكسب والكد»[٨٣].

٢٢ـ النحاس: وعن النحاس يقول: «والنحاس إذا اشتد سواده كان أثمن وأجود»[٨٤].

٢٣ـ النخيل: وفيه يقول الجاحظ: «والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع»[٨٥].

وهكذا فقد جمع الجاحظ كل هذه المفردات العلمية المتعلقة بفضل اللون الأسود في الإنسان والحيوان والمعادن والأحجار والعطور والطبيعة وصاغها بأسلوبه المتميز بشكل سلس جعل من قراءة الرسالة متعة ذهنية واستراحة نفسية.

ويلاحظ أن الجاحظ جاء بمفرداته تلك من البيئة العربية كالإبل والبقر والخيل والتمر والجبل والشاء وغيرها فكأنه يخاطب الرجل العربي الأبيض في محاولة لإقناعه بفضل اللون الأسود والفخر به، فهو لون عربي.

٧٩ـ الجاحظ، ص ٢٠٥.
٨٠ـ الجاحظ، ص ٢٠٧.
٨١ـ الجاحظ، ص ٢٠٢.
٨٢ـ الجاحظ، ص ٢٠٥.
٨٣ـ الجاحظ، ص ٢٠٦.
٨٤ـ الجاحظ، ص ٢١٩.
٨٥ـ الجاحظ، ص ٢٠٣.

خامساً: المفاخرة بسواد العرب:

تبدو ملامح النزعة العربية عند الجاحظ واضحة جلية في رسالته: فخر السودان على البيضان. إذ إنه في مفاخرته وانتصاره للسود على البيض استخدم المفردات العربية جميعها التي يمكن استخدامها في المفاخرة كما مر. وإذا كان الجاحظ قد ربط اللون الأسود بأشياء في الإنسان والحيوان والزرع والمعادن والطبيعة، يحبها العرب، فإنه هنا يمضي بشجاعة ليربط اللون الأسود بالعربي نفسه، فالعربي أسود اللون. ولم يقف الجاحظ عند هذا الحد بل جعل العرب في المرتبة الثانية بعد السود الأصليين. وعند تتبع هذه المفردات للبنية الدلالية التي جاءت في أماكن متفرقة من الرسالة نلاحظ قناعة الجاحظ بمكانة السود في عصره العباسي الثاني التي بلغت حد القيام بما عرف بثورة الزنج.

ومن أبرز هذه المفردات التي أوردها الجاحظ في رسالته في الفخر بسواد لون العربي ما يلي:

١ـ يؤكد الجاحظ فخر العربي بسواد لون، وأن حديثهم عن لون فلان الأبيض إنما هو من قبيل الفخر بكرم الجوهر ونقائه، حيث يقول: «والعرب تفخر بسواد اللون. فإن قال: فعلام ذلك وهي تقول: فلان هجان، وأزهر وأبيض، وأغر؟ قال: ليس تريد بهذا بياض الجلد، وإنما تريد به كرم الجوهر ونقاءه. وقد فخرت خصر محارب بأنها سود، والسود عند العرب الخضر»(٨٦).

٢ـ ثم يقفز الجاحظ بجرأة بالغة ليفتخر بأن ولد عبدالمطلب العشرة كانوا دلماً ضخماً فيقول: «وكان ولد عبدالمطلب العشرة السادة دلماً ضخماً، نظر إليهم عامر بن الطفيل يطوفون كأنهم جمال جون، فقال: بهؤلاء تمنع السدانة. وكان عبدالله بن عباس أدلم ضخماً. وآل أبي طالب أشرف الخلق، وهم سود، وأدم ودلم»(٨٧).

٨٦ـ الجاحظ، ص ٢٠١.
٨٧ـ الجاحظ، ص ٢٠٩.

٣ـ ويمضي الجاحظ بأسلوب الجدل المعتزلي يناظر محاولاً الوصول إلى أن السودان هم الخلص والعرب أشباه الخلص فيقول على لسان السود: «قالوا: وقال النبي صلى الله عليه وسلم: بعثت إلى الأحمر والأسود، وقد علمت أنه لا يقال للزنج والحبشة والنوبة بيض ولا حمر، وليس لهم اسم إلا السود».

وقد علمنا أن الله عز وجل بعث نبيه (إلى الناس) كافة، وإلى العرب والعجم جميعاً. فإذا قال: «بعثت إلى الأحمر والأسود» ولسنا عنده حمراً ولا بيضاً، فقد بعث إلينا، فإنما عنانا بقوله «الأسود». ولا يخرج الناس من هذين الاسمين، فإن كانت العرب من الأحمر، فقد دخلت في عداد الروم والصقالبة، وفارس وخراسان. وإن كانت من السود، فقد اشتق لها هذا الاسم من اسمنا، وإنما قيل لهم وهم أدم وسمر سود، حين دخلوا معنا في جملتنا، كما يجعل العرب الإناث من الذكور ذكوراً.

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الزنج والحبشة والنوبة ليسوا بحمر ولا بيض، وأنهم سود، وقد بعثه الله تعالى إلى الأسود والأحمر، فقد جعلنا والعرب سواء، ونكون نحن السود دونهم. فإن كان اسم أسود وقع علينا فنحن السودان الخلص، والعرب أشباه الخلص، فنحن المتقدمون في الدعوة. وإذاً كان اسمهم محمولاً على اسمنا، إذ كنا وحدنا يقال لنا سود، ولا يقال لهم سود إلا أن يكونوا معنا»[٨٨].

٤ـ ثم يذهب الجاحظ إلى ما هو أبعد تاريخاً فيقول: «وليست قحطان من عدنان في شيء، ونحن بالحبشة أشبه، وأرحامنا بهم أمس من عدنان بقحطان».

٥ـ ثم يحاول الجاحظ أن يؤكد أن العرب من السودان لا البيضان ومحاولته هذه تأتي من منطلق إعلاء شأن اللون الأسود وربطه بالعرب وليس تقليلاً من شأن العرب فيقول: قالوا: ومنا العرب لا من البيضان، لقرب ألوانهم من ألواننا، والهند أسفر ألواناً من العرب، وهم من السودان. ولأن النبي صلى الله عليه

٨٨ـ الجاحظ، ص ٢١٠ .

وسلم قال: «بعثت إلى الأحمر والأسود». وقد علم الناس أن العرب ليست بحمر كما ذكرنا قبل هذا. قال: فهذا المفخر لنا وللعرب على جميع البيضان إن أحبت ذلك العرب، وإن كرهته فإن المفخر لنا بالذي ذكرنا على الجميع»[٨٩].

٦ـ وفي معرض دفاعه عن السود يؤكد الجاحظ أن اللون الأسود ليس تشويهاً ولكنه بفعل البلد والموقع الجغرافي، وحجته في ذلك أن هناك قبائل عربية سوداء، فيقول: «إن الله تعالى لم يجعلنا سوداً تشويهاً بخلقنا، ولكن البلد فعل ذلك بنا، والحجة في ذلك أن في العرب قبائل سوداً كبني سليم بن منصور، وكل من نزل الحرة من غير بني سليم كلهم سود»[٩٠].

٧ـ وأخيراً يربط الجاحظ بين اللون الأسود في البشر بالأنبياء فيقول مفاخراً: «والقبط جنس من السودان وقد طلب منهم خليل الرحمن الولد فولد له منهم نبي عظيم الشأن، وهو أبو العرب إسماعيل عليه السلام، وطلب النبي صلى الله عليه وسلم منهم الولد، وولد له إبراهيم، كناه به جبريل»[٩١].

وبذلك يكون الجاحظ قد نجح إلى حد بعيد في إقناع الآخرين، ولاسيما العرب، بأن اللون الأسود مما يفاخر به، ولم لا وقد ارتبط بالعربي الذي افتخر بسواد لونه، وأن هناك شخصيات عربية شريفة سوداء، أنجبت شخصيات لها مكانتها فيما بعد. ثم مضى الجاحظ إلى ما هو أبعد من ذلك ليفاخر بأن السودان هم الخلص وأن العرب أشباه الخلص فالسودان أفضل، بالإضافة إلى تأكيده أن هناك قبائل عربية سوداء بكاملها، وانتهى الجاحظ إلى ربط السواد بالأنبياء، وأبناء الأنبياء.

ويبدو أن الجاحظ بهذه الحماسة الشديدة للسود والنبرة العالية في الانتصار لهم والفخر بهم وتفضيلهم على البيض إنما أراد تأكيد ما آلت إليه قوة السود وقيمتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في العصر العباسي الثاني، وقد صدقت رؤية الجاحظ هذه في إقدام السود على ما عرف بثورة الزنج في السنة التي توفي فيها.

٨٩ـ الجاحظ، ص ٢١٦ـ٢١٧.
٩٠ـ الجاحظ، ص ٢١٩.
٩١ـ الجاحظ، ص ٢١٨.

٢ـ منهج المعالجة في رسالة الجاحظ

لقد عرف عن الجاحظ شدة تمسكه واعتزازه بالعربية وبكل ما تحويه من مثل وقيم وأخلاق وجنس ولغة وبيئة، وكان له دور كبير في محاربة الشعوبية التي انتشرت في الحواضر العباسية، التي حاول أصحابها الطعن بكل ما هو عربي، ومن هذا المنطلق جاءت مفاخرة الجاحظ وانتصاره للسودان على البيضان في شكل ربط مفردات البنية الدلالية لهذه المفاخرة بكل ما هو عربي.

إن دفاع الجاحظ عن اللون الأسود والفخر به جعله يربط اللون الأسود ربطاً محكماً بشخصيات عربية، وبشعر عربي لشعراء عرب، وبقيم ومفاهيم عربية، وبالفصاحة العربية، والشجاعة والعدالة والنبل والكرم العربي، وبكل أسود اتصل بالبيئة العربية كالإبل والبقر والنخيل والتمر وغيرها، وكما ربط بين السواد وإسماعيل عليه السلام ابن المرأة القبطية، على اعتبار أن «القبط جنس من السودان»[٩٢]، وربط أيضاً بين السواد وإبراهيم بن مارية القبطية على اعتبار أنه ابن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أيضاً.

إن من يقرأ الجاحظ ولاسيما في رسالته: فخر السودان على البيضان ليلاحظ عناية الجاحظ الفائقة بمعانيه وألفاظه دون أن يتغلب فريق على الآخر، فيقدم المعنى الشريف بلفظ بليغ بأسلوبه الجاحظي الخاص به القائم على أساس عرض آرائه وأدلته وبراهينه في سياق منطقي وبنية حجاجية أساسها الحوار والجدل والمناظرة، تلك التي تعلمها من شيخه النّظّام وكونت فكره المعتزلي.

ولقد اتبع الجاحظ في رسالته: فخر السودان على البيضان عدة عناصر فنية تشكل منهجاً ثابتاً في بنية رسالته هذه وهي:

٩٢ـ الجاحظ، ص ٢١٨.

١ـ رصد الواقع :

لقد اهتم الجاحظ اهتماماً بالغاً برصد الواقع الاجتماعي الذي عاشه بدقة وأمانة دون حرج، وتعد كتاباته مرآة صادقة عكست المظاهر الاجتماعية في عصره، فقد كتب عن الأمراء والوزراء والحجاب والقواد من ناحية، وكتب عن الحمقى والمجانين، والغلمان والشطار والظرفاء والعميان والعرجان والبرصان والحولان من ناحية ثانية، كما كتب عن الأجناس البشرية والألوان فكتب عن العرب والترك والفرس والروم، وتأتي رسالته: فخر السودان على البيضان في السياق نفسه حيث رصد الجاحظ واقع السود في عصره بصدق وأمانة.

ولم يغفل هذه الطبقة الاجتماعية واسعة الانتشار وصاحبة الشأن الكبير في عصره، فمنحها بالغ اهتمامه وانتصر لها وفاخر بها ووضع فيها هذه الرسالة.

٣ـ الاحتجاج :

لاشك أن الجاحظ كان متكلماً، وقد تأثر بشيخه وأستاذه النظّام الذي أعده ليكون محاوراً معتزلياً يعتمد على أسلوب الاحتجاج ليتفوق على خصمه ويقنع سامعيه بأفكاره، وقد تطلب أسلوب الاحتجاج أن يعتمد الجاحظ في رسالته: فخر السودان على البيضان على أن يكون البناء الحجاجي للنص قائماً على نسيج تركيبي متكامل يسير وفق نسق منظم من أول الرسالة إلى آخرها، فبدأ بعرض المقدمات الجدلية الخطابية لشد انتباه القارىء أو السامع، ثم مضى في توثيق أطروحاته بالأدلة سواء كانت شعراً أو نثراً أو حكمة أو خبراً أو مثلاً أو حديثاً نبوياً أو آية قرآنية ليؤكد حجته في فضل السودان على البيضان معتمداً على أسلوبه الازدواجي الخاص به.

ويبدو الأسلوب الحجاجي في الرسالة واضحاً من أولها إلى آخرها ولكنه يبدو بصورة مكثفة عندما وقف الجاحظ طويلاً عند الحديث النبوي: «بُعثتُ إلى الأحمر والأسود». ليحاجَّ مفتخراً بالأسود على الأبيض.

٣ـ أسلوب الازدواج :

لم تكن عناية الجاحظ بمعانيه على حساب ألفاظه وأسلوبه، فكما كانت معانيه

شريفة كان أسلوبه بليغاً؛ أي أنه لم يعتمد على السجع بل اعتمد في رسالته: فخر السودان على البيضان، وفي غيرها من كتاباته أيضاً، على أسلوب الازدواج القائم على أساس تساوي فاصلتي قرينتين متواليتين أو أكثر في الوزن دون السجع، أو كما عرفه البعض بأنه السجع العاطل.

فقد حرص الجاحظ على إحداث معادلة صوتية موسيقية عذبة بين ألفاظه تؤدي إلى توازن صوتي جميل في جمله دون السجع وهو أسلوب عرف به الجاحظ وامتاز به عن غيره من الكتاب، وقد انتشر هذا الأسلوب من أول الرسالة: فخر السودان على البيضان. إلى آخرها. ومع أن التكرار والترادف من أبرز سمات أسلوب الازدواج عند الجاحظ، إلا أنه في هذه الرسالة أغفلهما واعتمد على الإيجاز والتكثيف نظراً لحجم الرسالة الصغير.

٤ـ الإيجاز:

ولما كانت رسالة الجاحظ: فخر السودان على البيضان رسالة حجاجية قصيرة فقد اعتمد الجاحظ فيها على الإيجاز «والبلاغة في الإيجاز» حيث تم التعبير عن المعاني بألفاظ قليلة وعبارات قصيرة مستخدماً أسلوب الازدواج حيث الجمل الموسيقية العذبة والقوية السريعة والمنطقية الحجاجية التي تقنع الخصم فتسكته وتلجمه.

٥ـ الوضوح:

ولقد كانت معاني الجاحظ في رسالته: فخر السودان على البيضان واضحة جلية، ومرد وضوحها مقدرة الجاحظ على إيراد معانيه الشريفة بألفاظ دالة على مقاصدها ومعانيها دون غرابة أو تعقيد في اللفظ أو تشابك ناتج عن سوء في تقديم الألفاظ أو تأخيرها أو حذفها، كما أن تمكن الجاحظ من اللغة والنحو ساعد كثيراً على تقديم معانيه بألفاظ واضحة.

٦ـ التكثيف:

ورغم إمكانيات الجاحظ الكتابية الضخمة وقدرته الفائقة على الاسترسال

والتكرار والترادف إلا أنه اعتمد في رسالته هذه على تكثيف المعلومات وضغطها، وهو ما يناسب أسلوب الاحتجاج الذي اتبعه في هذه الرسالة من ناحية وحجم الرسالة القصير من ناحية ثانية. وهذا ساعد على تقديم أفكاره ومعانيه ليقنع خصمه وينتصر عليه. ومن المؤكد أن تكثيف المعاني وضغطها في جمل موجزة في رسالة صغيرة بحجم: فخر السودان على البيضان أمر يحتاج إلى مقدرة كتابية عالية وخبرة عظيمة بحيث تحمل هذه الجمل الموجزة تلك المعاني والأفكار المكثفة لتؤدي وظيفتها وتوصل مضامينها بشكل ناجح يقنع الخصم، وهو ما فعله الجاحظ في هذه الرسالة.

٧ـ الفصاحة:

ومفهوم الفصاحة عند البلاغيين هو خلوص الكلام من الضعف في التأليف والتنافر في الكلمات والحروف والغريب الوحشي ومخالفة القياس، ومن يقرأ رسالة الجاحظ: فخر السودان على البيضان، وغيرها يلاحظ فصاحة الجاحظ البالغة وبيانه العذب، وهي فطرة وملكة طبيعية عنده صقلها بكثرة القراءة وسعة الاطلاع والدوام على الكتابة، فجاءت ألفاظه فصيحة عذبة دالة على معانيها بوضوح تام.

٨ـ الوحدة الموضوعية:

تمتاز رسالة الجاحظ: فخر السودان على البيضان بأنها ذات موضوع واحد لا غير، مما جعلها رسالة متماسكة قوية البنية، محكمة الصنعة، تسير معانيها بألفاظ دالة عليها بشكل منتظم من أول الرسالة إلى آخرها، وهذه سمة عامة في الرسائل القصيرة.

٩ـ مصادر المعاني:

وتتنوع المصادر التي أخذ الجاحظ منها معانيه في رسالته: فخر السودان على البيضان. ورغم كثرة الآيات القرآنية التي نزلت في السود والعبيد والإماء وغيرهم، سواء المتعلقة بعتقهم أو أسلوب معاملتهم إلا أن الجاحظ لم يستعن إلا

بثلاث آيات، ليس لها علاقة بالسود وذلك في موضوعين: [٩٣]

أ- قوله تعالى ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾ (آل عمران ٩٦).

ب- وقوله تعالى ﴿ومن دونهما جنتان﴾ (الرحمن ٦٢).

ج- وقوله تعالى ﴿مدهامتان﴾ (الرحمن ٦٤).

ورغم كثرة الأحاديث النبوية والمواقف والأخبار عن الأحباش خاصة والسود عامة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن الجاحظ لم يورد إلا حديثاً واحداً في رسالته: فخر السودان على البيضان وهو: «بعثت إلى الأحمر والأسود»، ويبدو أن اتجاه الجاحظ المعتزلي جعله يعتمد في رسالته هذه على المحاجة العقلية في الفخر بالسودان على البيضان وليس النقل من نصوص جاهزة في القرآن والسنة؛ لذا نلاحظ في هذه الرسالة اعتماد الجاحظ الواضح والمكثف على غرف معانيه وأدلته العقلية من الشعر العربي وأخبار العرب وبيئتهم في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والأموي حتى عصره العباسي.

١٠- اللغة:

وتعتبر اللغة أو المفردة اللغوية من أهم العناصر الفنية في منهج الجاحظ في رسالته: فخر السودان على البيضان، وركيزة أساسية في البناء الدلالي. فالكلمة أو المفردة اللغوية أداة التعبير الأولى عن المعاني والأفكار، وهي سر الفصاحة إن أجاد الكاتب الإتيان بها دون تقارب في مخارج حروفها.

فالمستوى الصوتي للكلمات في رسالة الجاحظ: فخر السودان على البيضان دل بشكل واضح على فصاحة المفردة اللغوية من أول الرسالة إلى آخرها، فلم نلاحظ كلمات صعبة النطق أو ثقيلة على السمع بسبب التقارب في مخارج الحروف، بل جاءت المفردات اللغوية سلسلة عذبة.

٩٣- الجاحظ، ص ١٨٦-٢٠٤.

أما على المستوى الدلالي للمفردة اللغوية في الرسالة فقد كانت الكلمة واضحة دالة على معناها بسهولة ويسر دون غموض أو إغراب، أما على المستوى الصرفي لمفردات الجاحظ في هذه الرسالة فقد جاءت الكلمات متفقة مع الصيغ المعروفة في اللغة العربية ولم تخرج على أسس علم الصرف العربي المتعارف عليها.

وهكذا لاحظ الجاحظ قوة السود في عصره وانتشارهم الواضح في الحواضر العباسية ولاسيما البصرة، ونشاطهم في النواحي الاجتماعية والاقتصادية، وتشكيلهم قوة ضخمة ظن أنها قد تؤدي دوراً سياسياً كما أداه الفرس والترك، فعمد إلى كتابة رسالة في: فخر السودان على البيضان، أساسها الانتصار للسودان، ومفاخرتهم على البيضان، بالاعتماد على ربط اللون الأسود بكل ما هو عربي سواء ربطه بشخصيات عربية سوداء وشعر عربي وشعراء عرب وصفات عربية في السود أو فضل اللون الأسود في الحيوان والنبات والمعادن والأحجار والطيب وغيرها، وقد وضع ذلك كله وفق منهج ثابت قائم على أساس رصد الواقع القائم للسود في عصره، وفق بناء حجاجي متماسك من أول الرسالة إلى آخرها، مستخدماً أسلوب الازدواج العذب دون السجع، والإيجاز بالألفاظ الواضحة والفصيحة الدالة على معانيها دون التعقيد والغرابة، مع التكثيف في المعلومات.

وقد جعل من الشعر العربي والبيئة العربية وأخبار العرب في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والأموي حتى العصر العباسي حيث وفاته مصادر لمعانيه وأفكاره بالإضافة إلى بعض الآيات وحديث نبوي واحد، وقد وضع ذلك كله بلغة عربية عذبة سليمة على المستوى الصوتي والدلالي والصرفي.

ثانياً: ابن الجوزي وكتابه: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش

وإذا كان السود، منذ بداية الدولة العباسية، استطاعوا تكوين نفوذ اجتماعي واقتصادي وسياسي لهم وصل إلى حد القيام بثورة الزنج (٢٥٥هـ/ ٢٧٠هـ) التي قضى عليها الموفق أخو الخليفة العباسي المعتمد وولي عهده، وإذا كانت قوتهم تلك دفعت الجاحظ إلى الكتابة عنهم، فإن حالهم في العصر العباسي الرابع (٤٤٧هـ/ ٦٥٦هـ) قد أصبح ضعيفاً إلى حد كبير جداً مما دفع ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ إلى وضع رسالته عن السود من منظور مختلف، وإذا كان السود قد أدوا دورهم في قيام الدولة العباسية منذ تأسيسها باشتراكهم في القتال بجانب العباسيين وضد الأمويين وأنصارهم فإنهم قد غابوا عن الساحتين السياسية والعسكرية تماماً في قيام الدولة السلجوقية في بغداد سنة ٤٤٧هـ .

وإذا كان انتشار الظلم وعدم المساواة المحرك الأول وراء الثورة العباسية ضد الأمويين؛ تلك الثورة التي شارك فيها السود عامة، فإن الدولة السلجوقية قد قامت نتيجة صراع طائفي بين البويهيين والفاطميين الشيعة من جهة والعباسيين السنة من جهة ثانية لا دخل للسود فيها.

ففي نهايات الدولة البويهية زاد نشاط السلاجقة وزادت قوتهم، وهم أتراك غزّ، في خراسان بقيادة طُغْرُلْبك حتى غدت أراض واسعة من إيران تحت سيطرتهم. ولما أحس الخليفة العباسي القائم بأمر الله بخطر البساسيري[٩٥]، وهو أحد القواد الأتراك لأبي نصر الملك الرحيم البويهي، الذي كاتب الخليفة الفاطمي المستنصر بمصر، دعا الخليفة العباسي القائم بأمر الله طُغْرُلْبك إلى دخول بغداد في رمضان سنة ٤٤٧ لينتهي عصر الدولة البويهية في بغداد ويبدأ عصر الدولة السلجوقية.

وتألف المجتمع البغدادي أيام الدولة السلجوقية من ثلاث طبقات: الطبقة

٩٤ـ الجاحظ، ص ٢١٤ـ١٧٨ـ٢١٨ .
٩٥ـ ابن الجوزي، المنتظم، ١٥/ ٣٤٨ وما بعدها.

الأولى، وعلى رأسها الخليفة والملوك السلاجقة ووزراؤهم وقادتهم والأمراء والأميرات والولاة وكبارالتجار وملاك الأراضي، أما الطبقة الثانية فتشمل صغار التجار و/الصناع وموظفي الدولة العاملين في الحسبة والشرطة بالإضافة إلى القضاة والعلماء والمدرسين، أما الطبقة الثالثة فهي طبقة العامة من الرقيق والخدم والمزارعين والحرفيين البسطاء(٩٦)، وشكل السود الغالبية في الطبقة الثالثة، وهم مستضعفون لا حول لهم ولا قوة، يعملون في المهن البسيطة كفلاحة الأرض وزراعتها، وتربية الماشية والخدمة في المنازل والقصور والحانات والعمل في بعض الصناعات اليدوية، وفي ظل غنى الدولة الفاحش زاد الرقيق في بغداد والبصرة، وسائر الأراضي العراقية، «وكان الرقيق كثيراً كثرة مفرطة، وكان من أجناس مختلفة، فمنه الإفريقي ومنه التركي الآسيوي ومنه الأوروبي وخاصة الصقلبي والرومي. وكانت له سوق رائجة في بغداد من قديم. . . »(٩٧) وعلى الرغم من ذلك فقد كان العنصر التركي الأكثر والأوسع انتشاراً أيام دولة السلاجقة في بغداد حيث سيطروا على مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلى حد إقدام الخلفاء العباسيين على الزواج من بنات السلاجقة الأتراك كزواج الخليفة المقتدي من بنت السلطان ملكشاه، وزواج الخليفة المستظهر من بنت السلطان ملكشاه أيضاً(٩٨).

ولم تذكر المصادر أي دور مهم للسود في أي من النواحي الاجتماعية الاقتصادية والسياسية في العصر العباسي الرابع أيام دولة السلاجقة في بغداد بل ظلوا طبقة ثالثة مستضعفة بعيدة عن مجريات الحياة، تعيش على هامش الحياة وتعمل في المهن البسيطة كالفلاحة والزراعة والخدمة وتربية الماشية لتعيش على أطراف الحياة لا داخلها.

وعلى أية حال فقد نشطت الحركة الثقافية والعلمية والتعليمية في ظل الدولة السلجوقية بشكل ملاحظ ولاسيما في زمن ألب أرسلان السلجوقي، حيث تولى

٩٦ـ ضيف، عصر الدول والإمارات: الجزيرة العربية ـ العراق ـ إيران، ص ٢٥١.
٩٧ـ المصدر السابق، ص ٢٦١.
٩٨ـ المصدر السابق، ص ٢٥٣.

وزيره نظام الملك زمام المبادرة في بناء المدارس في بغداد والبصرة والموصل وفي إيران أيضاً، كما زاد عدد العلماء ونشطت حركة الوراقين وحركة التأليف في مختلف العلوم الأدبية والشعرية واللغوية والمعجمية والتاريخية والجغرافية والشرعية وغيرها[٩٩]، كما ظهر في هذا العصر الكثير من كبار العلماء في مختلف العلوم ولعل أبا الفرج عبدالرحمن بن الجوزي من أبرزهم.

إن متابعة سريعة لحياة ابن الجوزي قد تساعد على الكشف عن الأسباب التي دفعته للكتابة عن الأحباش وبيان فضلهم، فهو عبدالرحمن بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي، جمال الدين، أبو الفرج، القرشي البغدادي، ويرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو عربي قرشي تيمي أصيل[١٠٠] أما كنية ابن الجوزي فترجع إلى سكن جده في دار بواسط فيها جوزة وحيدة، وقيل بل ترجع إلى بيع الجوز، أو إلى مشرعة الجوز ببغداد[١٠١] وكانت ولادته بدرب حبيب ببغداد سنة ٥١٠هـ، وقيل سنة ٥٩٨هـ أو ٥٠٩هـ وتوفي سنة ٥٩٧هـ ببغداد.

نشأ ابن الجوزي يتيماً، فقد توفي والده وهو ابن ثلاث سنين، بينما ماتت أمه بعد وفاته بأيام سنة ٥٧٩هـ، وبدأت رحلة ابن الجوزي في طلب العلم مبكراً وهو دون السادسة من عمره عندما أخذته عمته الصالحة إلى خاله الشيخ محمد بن ناصر السلامي محدث العراق المشهور والمتوفى سنة ٥٥٠هـ، حيث كان له السبق والفضل في تعلم ابن الجوزي وتربيته ونبوغه، كما أخذ العلم عن علي بن عبيدالله الزغواني وأبي منصور الجواليقي وغيرهم حيث بلغ عدد شيوخه سبعة وثمانين شيخاً[١٠٢] والمتتبع لسيرة حياة ابن الجوزي يلاحظ مدى قوة شخصيته، فهو صاحب شخصية جادة مثابرة صادقة في طلب العلم إلى حد كبير جداً، إذ يقول عن نفسه: «. . . فإني أذكر نفسي ولي همة عالية وأنا في المكتب ابن ست سنين، وأنا قرين

٩٩ـ المصدر السابق، ص ٢٧٦ وما بعدها.

١٠٠ـ ابن الجوزي، لفتة الكبد إلى نصيحة الولد، ص ٥٧ .

١٠١ـ ابن الجوزي، المنتظم ١/ ١٣ .

١٠٢ـ ابن الجوزي، لفتة الكبد، ص ١٢ وص ٣٦ .

الصبيان الكبار، قد رزقت عقلاً وافراً في الصغر يزيد على عقل الشيوخ، فما أذكر أني لعبت في طريق مع الصبيان قط، ولا ضحكت ضحكاً خارجاً، حتى إني كنت ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع. فلا أتخير حلقة مشعبذ، بل أطلب المحدث، فيتحدث بالسير فأحفظ جميع ما أسمعه وأذهب إلى البيت وأكتبه. ولقد وفق لي شيخنا أبو الفضل ابن ناصر رحمه الله، وكان يحملني إلى الشيوخ فأسمعني المسند وغيره من الكتب الكبار، وأنا لا أعلم ما يراد مني، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغت فناولني ثبتها ولازمته إلى أن توفي رحمه الله، فنلت به معرفة الحديث والنقل. ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون على الجسر وأنا في زمن الصغر آخذ جزءاً وأقعد حجزة من الناس إلى جانب الرقة فأتشاغل بالعلم. ثم ألهمت الزهد فسردت الصوم، وتشاغلت بالتقلل من الطعام وألزمت نفسي بالصبر فاستمررت وشمرت ولازمت وعالجت السهر، ولم أقنع بفن من العلوم، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث، وأتبع الزهاد. ثم قرأت اللغة ولم أترك أحداً ممن يروي ويعظ، ولا غريباً يقدم إلا وأحضره، وأتخير الفضائل. وكنت إذا عرض لي أمران أقدم في أغلب الأحوال حق الحق، فأحسن تدبيري وتربيتي، وأجراني على ما هو الأصلح لي ودفع عني الأعداء والحساد ومن يكيدني، وهيأ لي أسباب العلم، وبعث إلي الكتب من حيث لا أحتسب، ورزقني الفهم وسرعة الحفظ والخط وجودة التصنيف ولم يعوزني شيئاً من الدنيا، بل ساق إلي من الرزق مقدار الكفاية، وأزيد...»(١٠٣).

فابن الجوزي شخصية جادة نبيلة، وهو عالم عصره الجليل في علوم القرآن وتفسيره والحديث والفقه والوعظ والتاريخ والأدب والشعر واللغة وغيرها. ولقد ظهرت جوانب من هذه الشخصية الوقورة الجادة واضحة في كتاباته ولاسيما في كتابه: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش، وهي شخصية تختلف عن شخصية الجاحظ.

١٠٣ـ المصدر السابق، ص ٣٦ـ٣٧.

وإذا كانت قوة السود منذ بداية العصر العباسي قد دفعت الجاحظ إلى وضع رسالته في: فخر السودان على البيضان فثمة دوافع دينية وعلمية دفعت ابن الجوزي إلى وضع مؤلفه: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش. إذ لم تظهر أي قوة للسود في العراق في زمن ابن الجوزي أيام السلطة السلجوقية، بل كانت القوة للأتراك.

وإذا كان الجاحظ وضع رسالته: فخر السودان على البيضان وفق منهج ثابت أساسه تتبع مظاهر الحياة الاجتماعية في عصره ورصدها بدقة، وفق بناء حجاجي وبأسلوب الازدواج الجاحظي المعتزلي وقد ربط اللون الأسود بكل ما هو عربي- فابن الجوزي في كتابه: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش قد لجأ إلى منهج آخر فوضع كتابه معتمداً على السرد التاريخي الديني، فتتبع كل فضيلة اتصلت بالسود والأحباش فسجلها بأسلوبه الرصين.

وقد ربط فضائل السود والأحباش بما جاء فيهم من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والسيرة النبوية وكتب التاريخ.

ولابد من الوقوف عند كتاب ابن الجوزي: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش لتعرّف البنية الدلالية فيه، وتعرف منهج المؤلف في المعالجة لهذا الكتاب(١٠٤).

١٠٤ـ لقد تم الاعتماد في هذه الدراسة على نسخة مخطوطة لكتاب عبدالرحمن بن الجوزي: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش. وهي نسخة المكتبة الأزهرية، رواق المغاربة، رقم ١٢٠٦ . عدد أوراقها ١٠٨ ورقات بمقياس ٢٢ سم × ١٦ سم. وهي نسخة نادرة ومقروءة وخالية من التلف.

البنية الدلالية في كتاب ابن الجوزي، أبواب الكتاب

ويلاحظ من عنوان الكتاب أن ابن الجوزي حرص على أن يكون كتابه بعنوان: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش. فلم يخصصه للسود فقط ولا للأحباش فقط، ومرجع ذلك إلى أن ابن الجوزي كان حريصاً على تتبع فضل السود منذ زمن سيدنا نوح عليه السلام وأولاده سام وحام ويافث، حيث كان حام أبا السود من ناحية، وتتبع فضل الأحباش وموقف النجاشي من المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة وانتصاره لهم وإسلامه من ناحية ثانية.

ويلجأ ابن الجوزي إلى السرد التاريخي الديني في كتابه وحسن تبويبه وتقسيمه، كما أن المتفحص للمادة العلمية ومفردات البنية الدلالية في كتابه يلاحظ كثرة اعتماده على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بجانب اعتماده على السيرة النبوية والأحداث التاريخية. ويمكن بيان ذلك فيما يلي:

* **الباب الأول:** في ذكر من ينسب إليه السودان (٣أ-٤أ). وفي هذا الباب أورد ابن الجوزي حديثين نبويين في أن نسب السود يرجع إلى حام بن نوح عليه السلام.

* **الباب الثاني:** في ذكر سبب سوادهم (٤أ)، ويرى ابن الجوزي هنا أن اللون الأسود للإنسان إنما هو بسبب الموطن الجغرافي لذلك الإنسان من الأرض، وطبيعة الهواء، وليس بسبب دعوة نوح على ولده حام لما انكشفت عورته، ويقول ابن الجوزي في ذلك صراحة: «فأما ما يروى أن نوحاً انكشفت عورته فلم يغطها فدعا عليه فاسود فشيء لا يثبت ولا يصح والله أعلم»(١٠٥).

* **الباب الثالث:** في ذكر إحياء عيسى بن مريم حام بن نوح (٤أ-٥أ). ويذكر ابن الجوزي في هذا الباب روايتين: الأولى إحياء عيسى عليه السلام لحام، والثانية إحياء عيسى عليه السلام لسام.

١٠٥-ابن الجوزي، تنوير الغبش، ٤أ.

*** الباب الرابع:** في ذكر ممالك السودان من الأرض وسعتها (٥أ ـ ٥ب). ويذكر ابن الجوزي هنا رواية تقسيم الأرض بقوله: «الأرض ألف فرسخ وثلاثة وعشرون ألف فرسخ، فاثنا عشر ألفاً للسودان، وثمانية آلاف الروم، وثلاثة آلاف للفرس، وألف فرسخ للعرب»[١٠٦].

*** الباب الخامس:** في ذكر فضائل اجتمعت في طباع السودان (٦أ). ويعدد ابن الجوزي في هذا الباب تلك الفضائل التي اجتمعت في طباع السودان وهي قوة البدن، قوة القلب وذلك ثمرة الشجاعة، الكرم الوافر، حسن الخلق، قلة الأذى، كثرة ضحك السن، طيب الأفواه، سهولة العبارة، وعذوبة الكلام.

*** الباب السادس:** في ذكر فضائل أشياء خصت بسواد اللون من الحيوان والنبات والأحجار (٦ب ـ ١١أ).

ويعدد ابن الجوزي هذه الفضائل في ثلاثة فصول:

١ـ **فصل في الحيوان:** منها سواد العين والكبد والقلب والشَّعر.

٢ـ **فصل في النبات:** منها الشونيز، وهي الحبة السوداء فهي «تحلل الأرياح الباردة، وتقطع البلغم، وتنقي الصدر من الرطوبة اللزجة، وتقطع الثآليل والبهق، وتقتل الديدان وتدر الطمث...»[١٠٧].

ومنها تمر الأراك، ومنها الأبهل وهو تمر البريمي الجبلي، ممتازه الأسود، ينفع من القروح العفنة والسدد وأورام الأعصاب»[١٠٨]. ومنها الأملج الأسود: «فإنه يسهل السوداء، وينشف البلغم من المعدة، وينفع الجذام»[١٠٩]. ومنها بزر قطونا «أجوده أشد سواداً، ويُسكن الكرب والحرارة»[١١٠].

١٠٦ـ المصدر السابق، ٥أ.

١٠٧ـ المصدر السابق، ٩ب، وانظر: الخطابي، ص ٢١٦.

١٠٨ـ ابن الجوزي، تنوير الغبش، ١٠أ، وانظر الخطابي، ص ١١، وابن منظور، ١١/ ٧٣.

١٠٩ـ ابن الجوزي، تنوير الغبش، ١٠أ، وانظر: الخطابي، ص ٣٩.

١١٠ـ ابن الجوزي، تنوير الغبش، ١٠ب، وانظر: الخطابي، ص٦٣.

ومنها الأبنوس، فهو «يفتت حصى المثانة، وينفع البياض الحادث في العين والغشاوة»[111].

٣ـ **فصل في الأحجار**: منها الحجر الأسود، وهو من حجارة الجنة[112]، ومنها المغناطيس «وفيه الخصيصة العجيبة وهو اجتذاب الحديد إليه من غير مسٍ»[113].

ومنها الحجر الذي يحك عليه الذهب[114].

ومنها الحجارة التي يقتدح بها النار «أكثرها على لون الحبشة»[115] ومنها الإثمد «وهي حجارة شديدة السواد»[116] ومنها المسك والعود والعنبر[117].

* **الباب السابع**: في ذكر إنفاذ قريش إلى النجاشي ليسلم إليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١١ب ـ ١٦ب). وفي هذا الباب يذكر ابن الجوزي قصة وفد قريش بزعامة عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص والمهاجرين بزعامة جعفر بن أبي طالب وحوارهم أمام النجاشي الذي انتصر فيه للمهاجرين ورفض تسليمهم لقريش.

* **الباب الثامن**: في ذكر من هاجر من الصحابة إلى أرض الحبشة (١٦ب ـ ١٨أ). ويعدد ابن الجوزي أسماء المهاجرين مرتبين على حروف المعجم كما قال:

١ـ الأسود بنت نوفل.

٢ـ أسماء بنت عميس.

٣ـ بركة بنت يسار.

١١١ـ ابن الجوزي، تنوير الغبش، ١٠ب.

١١٢ـ المصدر السابق، ١١أ.

١١٣ـ المصدر السابق، ١١أ.

١١٤ـ المصدر السابق، ١١أ ـ ١١ب.

١١٥ـ المصدر السابق، ١١ب.

١١٦ـ المصدر السابق، ١١ب.

١١٧ـ المصدر السابق، ١١ب.

٤- تميم بن الحارث .
٥- جابر بن سفيان .
٦- جعفر بن أبي طالب .
٧- جنادة بن سفيان .
٨- جهم بن قيس .
٩- الحارث بن حاطب .
١٠- الحارث بن خالد .
١١- الحارث بن عبد قيس .
١٢- حاطب بن الحارث .
١٣- حاطب بن . . .
١٤- خولة بنت عبدالأسود .
١٥- حسنة بنت شرحبيل .
١٦- خالد بن سفيان .
١٧- خالد بن سعيد .
١٨- خالد بن حزام .
١٩- خزيمة بن جهم .
٢٠- قيس بن حذافة .
٢١- ربيعة بن هلال .
٢٢- رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم .
٢٣- رملة بنت أبي عوف .
٢٤- ريطة بنت الحارث .
٢٥- الزبير بن العوام .
٢٦- السائب بن الحارث .
٢٧- السائب بن عثمان بن مظعون .

٢٨ـ سعد بن خولة .
٢٩ـ سعد بن الحارث .
٣٠ـ سعد بن عبدالقيس .
٣١ـ سعيد بن عمرو .
٢٣ـ سفيان بن معمر .
٣٣ـ السكران بن معمر .
٣٤ـ سلمة بن هشام .
٣٥ـ سليط بن عمرو .
٣٦ـ سويبط .
٣٧ـ سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم .
٣٨ـ شماس بن عثمان .
٣٩ـ طليب بن أزهر .
٤٠ـ طليب بن عمير .
٤١ـ عامر بن ربيعة .
٤٢ـ عامر بن أبي وقاص .
٤٣ـ عامر أبو عبيدة الجراح .
٤٤ـ عبيدة بن جحش .
٤٥ـ عبدالله بن الحارث .
٤٦ـ عبدالله بن خالد .
٤٧ـ عبدالله بن سفيان .
٤٨ـ عبدالله بن سهيل .
٤٩ـ عبدالله بن . . .
٥٠ـ عبدالله بن عبدالأسد .
٥١ـ عبدالله بن مخرمة .

٥٢ـ عبدالله بن مسعود .
٥٣ـ عبدالله بن مظعون .
٥٤ـ عبدالرحمن بن عوف .
٥٥ـ عتبة بن غزوان .
٥٦ـ عتبة بن مسعود .
٥٧ـ عثمان بن . . .
٥٨ـ عثمان بن مظعون .
٥٩ـ عثمان بن . . .
٦٠ـ عثمان بن عبد غنم .
٦١ـ عدي بن نضلة .
٦٢ـ عروة بن أثاثة .
٦٣ـ عمار بن ياسر .
٦٤ـ عمران بن ريان .
٦٥ـ عمرو بن أمية .
٦٦ـ عمرو بن جهم .
٦٧ـ عمرو بن الحارث .
٦٨ـ عمرو بن سعيد .
٦٩ـ عمرو بن عثمان .
٧٠ـ عمرو بن أبي السرح .
٧١ـ عمير بن رئاب .
٧٢ـ عميرة بنت السعدي .
٧٣ـ عياض بن زهير .
٧٤ـ عباس بن ربيعة .
٧٥ـ فاطمة بنت صفوان .

٧٦ـ فاطمة بنت علقمة .
٧٧ـ فاطمة بنت المجلل .
٧٨ـ فراس بن النضر .
٧٩ـ فكيهة بنت يسار .
٨٠ـ قدامة بنت مظعون .
٨١ـ قيس بن حذافة .
٨٢ـ قيس بن عبدالله .
٨٣ـ مالك بن زمعة .
٨٤ـ محمد بن حاطب .
٨٥ـ فاطمة بنت الحارث .
٨٦ـ مصعب بن عمير .
٨٧ـ المطلب بن أزهر .
٨٨ـ معبد بن الحارث .
٨٩ـ معاذ بن عوف .
٩٠ـ معمر بن عبدالله .
٩١ـ معيقيب المقداد .
٩٢ـ بثينة بنت عثمان .
٩٣ـ هاشم بن أبي حذيفة .
٩٤ـ هباب بن سفيان .
٩٥ـ هشام بن العاص .
٩٦ـ هشام بن عتبة .
٩٧ـ همينة .
٩٨ـ هند زوج النبي صلى الله عليه وسلم .
٩٩ـ يزيد بن زمعة .

١٠٠ـ الروم بن عمير .

١٠١ـ أبو أسدة بن زاعم .

١٠٢ـ أبو فكيهة .

١٠٣ـ أبو قيس بن الحارث .

١٠٤ـ أم كلثوم بنت سهيل .

١٠٥ـ عبدالله وعون ومحمد أولاد جعفر بن أبي طالب .

١٠٦ـ سعيد وأمه .

١٠٧ـ أبو خالد بن سعيد .

١٠٨ـ عبدالله بن المطلب .

١٠٩ـ محمد بن أبي حذيفة .

١١٠ـ محمد بن حاطب .

١١١ـ زينب بنت أبي سلمة .

١١٢ـ موسى وعائشة وزينب أولاد الحارث بن الخالد .

* **الباب التاسع :** في ذكر بيان أنه لا فضل لأبيض على أسود وإنما الفضل بالتقوى : (١٨ب ـ ١٩ب) . وهنا أورد ابن الجوزي خمسة أحاديث نبوية ليؤكد أنه لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

* **الباب العاشر :** في ذكر مكاتبة النبي صلى الله عليه وسلم النجاشي رضي الله عنه يدعوه إلى الإسلام : (١٩ب) . وهو باب قصير لم يتجاوز سبعة أسطر ، أشار فيها ابن الجوزي إلى أنه سيشرح هذا الموضوع في الباب السادس عشر : ذكر كبار ملوك الحبشة .

* **الباب الحادي عشر :** في ذكر قدوم الحبشة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعبهم بالحراب في المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر : (١٩ب ـ ٢١أ) .

وفي هذا الباب أورد ابن الجوزي خمسة أحاديث نبوية في لعب الحبشة بحرابهم في المسجد النبوي ورسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته عائشة ينظران إليهم.

* **الباب الثاني عشر:** في ذكر ما جاء في القرآن موافقاً للحبشة (٢١أ-٢١ب). وهنا أورد ابن الجوزي خمس كلمات جاءت في القرآن الكريم موافقة للغة الأحباش وهي:

١- ﴿يؤتكم كفلين﴾ (الحديد/ ٢٨) بمعنى ضعفين.

٢- ﴿وفيها مشكاة﴾ (النور/ ٣٥) بمعنى الكوة.

٣- ﴿طه﴾ (طه/ ١) بمعنى يا رجل.

٤- ﴿إن ناشئة الليل﴾ (المزمل/ ٦) بمعنى قيام الليل.

٥- ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾ (التوبة١١٤/) والأواه المؤمن.

* **الباب الثالث عشر:** في ذكر ما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلام الحبشة فأعجبه (٢١ب-٢٢ب): وهو باب قصير جداً أورد فيه ابن الجوزي حديثاً نبوياً واحداً، وهو رواية الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المرأة التي رأوها في الحبشة وقد دفعها فتى فوقعت وانكشرت جرتها فخاطبته بكلمة: يا غندر.

* **الباب الرابع عشر:** في ذكر تخصيص الحبشة بالأذان (٢٢ب). وفيه أورد ابن الجوزي حديثاً نبوياً واحداً خص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحباش بالأذان، وهو باب قصير أيضاً.

* **الباب الخامس عشر:** في ذكر من كان نبياً من السودان (٢٢ب-٣١ب)، ويذكر ابن الجوزي في هذا الباب ثلاثة من الأنبياء السود هم:

١- نبي أصحاب الأخدود.

٢- ذو القرنين.

٣- لقمان.

ويستطرد ابن الجوزي كثيراً في هذا الباب الذي امتد من الورقة ٢٢ب إلى ٣١ب وهو طويل نسبياً إذا ما قيس إلى حجم الكتاب، فيذكر الكثير من الروايات والأخبار في هؤلاء الثلاثة فبين قصص أصحاب الأخدود، وروايات تسمية ذي القرنين بهذا الاسم، وفيما إذا كان لقمان نبياً أم حكيماً. وهو استطراد كان بإمكان ابن الجوزي الاستغناء عنه.

* **الباب السادس عشر:** في ذكر كبار ملوك الحبشة (٣١ب-٣٩أ). ويخصص ابن الجوزي هذا الباب ليقدم ترجمة للنجاشي وحده اشتملت على ذكر رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم له وجوابه عنها. وزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من أم حبيبة وصداق النجاشي لها، وقصة عبيدالله بن مروان بن محمد مع ملك النوبة. وهو باب طويل نسبياً إذا ما قيس إلى حجم الكتاب.

* **الباب السابع عشر:** في ذكر أشراف السودان من الصحابة (٣٩أ-٥١ب). ويذكر ابن الجوزي هنا أسماء الصحابة من السود الذين تشرفوا بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أخبارهم وهم بحسب ترتيبهم عند ابن الجوزي:

١- سالم مولى أبي حذيفة.

٢- بلال بن رباح.

٣- مهجع مولى عمر بن الخطاب.

٤- أسامة بن زيد.

٥- أبو بكرة، واسمه نفيع.

٦- أسلم الأسود.

٧- مغيث، زوج بريرة.

٨- سعد الأسود.

٩- يسار الأسود.

١٠- جليبيب.

١١ـ صحابي حبشي .

١٢ـ صحابي أسود .

* **الباب الثامن عشر:** في ذكر أشراف السودان من الصحابيات : (٥١ب ـ ٥٣ب) . ويذكر هنا أسماء السود ممن تشرفن برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم والتعامل معه ، وهن حسب ترتيبهن عند ابن الجوزي :

١ـ أم أيمن ، مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضنته . واسمها بركة .

٢ـ أم زفر .

٣ـ جارية من الصحابيات .

٤ـ صحابية سوداء .

* **الباب التاسع عشر:** في ذكر المبرزين في العلم من السودان : (٥٣ب ـ ٥٨ب) . ويعدد ابن الجوزي هؤلاء المبرزين وهم حسب ترتيبهم عنده :

١ـ عطاء بن أبي رباح .

٢ـ أسلم بن أبي رباح .

٣ـ حبيب بن أبي ثابت .

٤ـ يزيد بن أبي حبيب .

٥ـ مكحول .

٦ـ إبراهيم بن المهدي بن المنصور .

٧ـ عبيدالله بن حازم السلمي .

* **الباب العشرون:** في ذكر شعرائهم ومن مثل منهم بشعر : (٥٨ب ـ ٥٨أ) ، ويذكر ابن الجوزي الشعراء السود وبعضاً من أشعارهم وهم :

١ـ عنترة .

٢ـ سحيم عبد بني الحسحاس .

٣ـ نصيب .

٤ـ أبو دلامة .

وعلى الرغم من إيراد ابن الجوزي لقطع من شعرهم إلا أنه لم يورد لهم شيئاً من الشعر أو النوادر التي يفخرون بها بسواد لونهم .

* **الباب الحادي والعشرون :** في ذكر طائفة من فطناء السودان والسود وأذكيائهم وكراماتهم : (٦٨أ ـ ٧٤أ) .

وفي هذا الباب يذكر ابن الجوزي حكايات طريفة وقعت للبعض مع رجال سود أو نساء سود تعبر عن فطنتهم وانتباههم ، وهي حكايات لسليمان بن عبدالملك وعبدالله بن جعفر وإسماعيل بن جامع وأبي عمرو بن العلاء والجارية بدل وعم وذي الرمة مع أم سالم .

* **الباب الثاني والعشرون :** في ذكر المتعبدين منهم : (٧٤أ ـ ٨٨ب) . ويعدد ابن الجوزي هنا أسماء المتعبدين من السود في عصور مختلفة ويروي بعضاً من أخبارهم ، فيما يلاحظ أن بعضهم مجهول الاسم وهم :

١ـ أبو معاوية الأسود واسمه اليمان .

٢ـ ذو النون بن إبراهيم أبو الفيض المصري .

٣ـ أبو الخير القيناني .

٤ـ عابد من أهل مكة أسود .

٥ـ عابد أسود بغدادي .

٦ـ عابد أسود بصري .

٧ـ عابد بصري أسود .

٨ـ عابد أسود من عبادان .

٩ـ عابد آخر لقي بطريق مكة .

١٠ـ عابد آخر .

١١ـ عابد آخر .

١٢ـ عابد آخر من عباد السواحل .

* **الباب الثالث والعشرون:** في ذكر المتعبدات من السود (٨٨ب ـ ٩٤ب) .

ويورد ابن الجوزي في هذا الباب أسماء بعض المتعبدات من السود وبعض أخبارهم، فبعضهن معروفات وبعضهن مجهولات الاسم وهن :

١ـ ميمونة السوداء .

٢ـ شعوانة من أهل الأُبُلّة .

٣ـ تحية النوبية .

٤ـ أم محمد بن الحنفية ، جارية سندية .

٥ـ عابدة مكية .

٦ـ عابدة كوفية .

٧ـ عابدة بصرية .

* **الباب الرابع والعشرون:** في ذكر من كان يؤثر الجواري السود على البيض، ومن كان يعشقهنّ، ومن مات من عشقهن : (٩٤أ ـ ١٠١ب) .

وفي هذا الباب يذكر ابن الجوزي أسماء بعض الشخصيات التي آثرت الجواري السود على البيض ومن عشقهن أو مات في عشقهن مع بعض الأخبار والأشعار والقصص عنهم، وهذه الشخصيات كما أوردها ابن الجوزي هي :

١ـ عبدالله بن أبي بكر الصديق .

٢ـ ابن عباس .

٣ـ أبو خليد الفزاري .

٤ـ ابن ميادة .

٥ـ رجل من المهالبة .

٦ـ بعض أهل الأدب .

٧ـ الفرزدق .

٨ـ دنانير ، جارية يحيى البرمكي .

٩ـ يزيد بن معاوية .

١٠ـ محمد بن عبدالملك الأسدي .

١١ـ النضر بن شميل .

١٢ـ سلمة بن دينار الأعرج ، أبو حازم .

١٣ـ إسماعيل بن جامع .

١٤ـ محمد بن عبدالله المهدي .

١٥ـ أبو عبدالله الحبشاني .

* **الباب الخامس والعشرون:** في ذكر أبناء الحبشيات من قريش (١٠١ب ـ ١٠٣أ) وهم :

١ـ نضلة بن هاشم بن عبد مناف بن قصي .

٢ـ نفيل بن عبدالعزى العدوي .

٣ـ عمر بن ربيعة بن حبيب*

٤ـ الخطاب بن نفيل العدوي .

٥ـ الحارث بن أبي ربيعة المخزومي .

٦ـ عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزى .

٧ـ صفوان بن أمية بن خلف الجمحي .

٨ـ هشام بن عقبة بن أبي معيط .

٩ـ مالك بن عبدالله بن جدعان .

١٠ـ عبيدالله بن عبدالله بن أبي مليكة المهاجري .

١١ـ قنفذ بن عمرو .

١٢ـ شافع بن عياض بن صخر التيمي .

١٣ـ عمرو بن العاص بن وائل .

١٤ـ قرظة بن عبدالله .

١٥ـ عمرو بن نوفل بن عبد مناف .

١٦ـ مالك بن حسل بن عامر .

١٧ـ سمرة بن حبيب بن عبد شمس .

١٨ـ عبدالله بن زمعة .

١٩ـ عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي .

٢٠ـ يعلى بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

٢١ـ عبدالله بن عبدالله بن عامر بن كريز .

٢٢ـ محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين .

٢٣ـ جعفر بن إسماعيل بن موسى بن جعفر .

٢٤ـ عبيدالله بن حمزة بن موسى بن جعفر .

٢٥ـ محمد بن جعفر .

٢٦ـ سليمان بن حسن بن عقيل بن أبي طالب .

٢٧ـ محمد بن داود بن محمد بن الحسن .

٢٨ـ أحمد بن عبدالملك ، من ولد عثمان بن عفان .

٢٩ـ أحمد بن محمد بن صالح المخزومي .

٣٠ـ العباس بن المعتصم .

٣١ـ هبة الله بن إبراهيم بن المهدي .

٣٢ـ محمد بن عبدالله بن إسحاق المهدي .

٣٣ـ عيسى بن أبي جعفر المنصور .

٣٤ـ جعفر بن أبي جعفر المنصور .

٣٥ـ العباس بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس .

٣٦ـ عبدالوهاب بن إبراهيم بن محمد .

ثم يفرد ابن الجوزي قسماً لأبناء السنديات وهم :

١ـ محمد بن الحنفية .

٢ـ علي بن الحسين بن أبي طالب .

٣ـ سعيد بن هشام بن عبدالملك بن مروان .

ومن أولاد الجواري الصفر يذكر ابن الجوزي شهريار بن كسرى .

* **الباب السادس والعشرون:** وفيه مواعظ ووصايا (١٠٣أ ـ ١٠٤ب) . وذكر ابن الجوزي في هذا الباب مواعظ ووصايا وأذكاراً وأدعية عامة استخدم فيها بعض الأبيات الشعرية ، وهو باب لا علاقة له بالسود .

* **الباب السابع والعشرون:** وفيه أذكار وتسبيحات (١٠٤ب ـ ١٠٥ب) . وذكر ابن الجوزي في هذا الباب خمسة أحاديث نبوية في فضل قراءة القرآن وذكر الله سبحانه وتعالى ، وهو باب لم يخص به السود أيضاً .

* **الباب الثامن والعشرون:** في ذكر الأدعية : (١٠٥ب ـ ١٠٨ب) . وهنا يورد ابن الجوزي ثلاثة عشر حديثاً نبوياً لأدعية نبوية مختلفة غير مختصة بالسود .

منهج المعالجة في كتاب ابن الجوزي

إذا كان الجاحظ قد وضع رسالته : فخر السودان على البيضان وفق منهج ثابت في رصد الواقع الاجتماعي للسود في عصره، وتسجيله بدقة وفق بناء حجاجي عقلي وبأسلوب الازدواج العذب فإن ابن الجوزي وضع كتابه : تنوير الغبش في فضل السودان والحبش وفق المنهج الديني الإسلامي النقلي معتمداً على أسلوب السرد التاريخي الديني مع تتبع مفردات موضوعة في القرآن الكريم والحديث النبوي والسيرة النبوية وكتب التاريخ، وقد وضع ذلك كله بلغة عربية فصيحة .

ويمكن تحديد منهج المعالجة في كتاب ابن الجوزي بما يلي :

١ـ عناصر المنهج :

لقد أثر الإسلام في الفكر العربي بشكل كبير، وطبعه بطابعه، وظهر هذا الأثر في التأليف والكتابة . فمنذ بداية الإسلام برز الطابع الديني الإسلامي مسيطراً على منهج التأليف والكتابة في التاريخ والأدب وغيرهما، وقد تقيد ابن الجوزي بالمنهج الديني الإسلامي في كتاباته، وفي : تنوير الغبش في فضل السودان والحبش يمكن تحديد عناصر المنهج بما يلي :

أ ـ البسملة : حيث بدأ ابن الجوزي كتابه بقوله : «بسم الله الرحمن الرحيم» .

ب ـ التحميد : ثم قال : «الحمد لله رب العالمين» .

ج ـ السلام : ثم قال : «والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين» .

د ـ التخلص : ثم خرج من المقدمات السابقة ليدخل في مضمون الكتاب بقوله : «أما بعد» .

هـ ـ العنوان : وهو ذكر اسم المؤلف، ولم يذكر ابن الجوزي اسم من ألف له الكتاب فقال : «فيقول العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير أبو الفرج عبدالرحمن بن

علي بن محمد بن علي بن الجوزي الحنبلي».

و ـ الموضوع: ثم ذكر موضوع الكتاب بقوله: «هذا الكتاب في فضل السودان والحبش».

ز ـ التبويب: ثم قال: «رتبته على ثمانية وعشرين باباً».

ح ـ الاسم: ثم قال: «وسميته: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش».

ط ـ المحتوى: ثم عرض ابن الجوزي محتوى كتابه بالتفصيل.

ي ـ الختام: ثم تأتي خاتمة الكتاب كما يلي: «والحمد لله حمداً كثيراً دائماً أبداً، وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وتابعيه وتابعي تابعيه إلى يوم الدين يا رب العالمين. تمت هذه النسخة المباركة على يد كاتبها الفقير إلى مولاه القوي، عبدالكريم أحمد الملوي، غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولإخوانه ولجميع المسلمين آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

٢ـ الاستعانة بالقرآن الكريم:

وتمشياً مع المنهج الديني النقلي فقد استعان ابن الجوزي بالآيات القرآنية الكريمة لدعم رأيه في فضل السودان، في الباب الثاني عشر: في ذكر ما جاء من القرآن موافقاً للحبشة والآيات هي:

١ـ ﴿يؤتكم كفلين﴾، الحديد/ ٢٨.

٢ـ ﴿فيها مشكاة﴾، / ٣٥.

٣ـ ﴿طه﴾، طه / ١.

٤ـ ﴿إن ناشئة الليل﴾، المزمل / ٦.

٥ـ ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾، التوبة / ١١٤.

٦ـ ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾. الإنسان / ١.

٧ـ ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾، الأعراف / ٤٤.

٣ـ الاستعانة بالحديث النبوي الشريف :

وابن الجوزي كأحد علماء الحديث النبوي في عصره قد استعان في كتابه هذا بخمسة وخمسين حديثاً نبوياً بأسانيدها، وهي الأحاديث جميعها المتعلقة بالسود تقريباً، حيث تتبعها ابن الجوزي تتبعاً دقيقاً وبثها في أماكنها من أول كتابه إلى آخره، في إطار منهجه الديني النقلي.

إن غلبة جانب علم الحديث النبوي في شخصية ابن الجوزي العلمية جعلته يحرص على إيراد الأحاديث النبوية بأسانيدها التي كانت في بعض الروايات أطول من الحديث نفسه. ولما كان كتاب ابن الجوزي: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش أقدم كتاب وصل إلينا في موضوعه، فإن هذا التتبع للأحاديث النبوية المتعلقة بالسود الأحباش يجعل من الكتاب مصدراً علمياً مهماً يمكن الاعتماد عليه والرجوع إليه في هذا الموضوع، وهذا ما فعله السيوطي والبخاري والحفني القنائي الأزهري وغيرهم بعد ابن الجوزي في كتبهم عن السود والأحباش.

٤ـ الاستعانة بالسيرة النبوية الشريفة :

ويرجع ابن الجوزي في تنوير الغبش إلى السيرة النبوية الشريفة، في إطار منهجه الديني النقلي ليستقي منها أخباراً كثيرة ومادة غزيرة يدعم من خلالها رأيه في فضل السودان والأحباش، فيورد الكثير من الأخبار المتعلقة بالسود وعلاقتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وموقفهم الكثيرة، كما يورد أسماء الكثيرين من الصحابة والصحابيات السود المهاجرين إلى الحبشة وأبنائهم وأخبارهم، ويحرص ابن الجوزي هنا على إيراد أسانيد رواياته وأخباره أيضاً ليجعل من كتابه هذا أشبه ما يكون بكتاب تاريخي موثق لحياة الكثيرين من الصحابة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

٥ـ الاستعانة بالتاريخ :

ويستعين ابن الجوزي بالتاريخ الإسلامي وما قبله في إطار منهجه الديني النقلي

أيضاً ليدعم آراءه ولاسيما تلك المتعلقة بقصص السود ونسبهم وسبب سواد ألوانهم وطباعهم وفضل سواد اللون وغيرها .

٦ـ ومن خلال قراءة كتاب ابن الجوزي : تنوير الغبش في فضل السودان والحبش يتضح اعتماد ابن الجوزي في بيان فضل السودان والأحباش على عناصر تاريخية دينية بالدرجة الأولى معتمداً على علاقة الشخصيات السود والأحباش بالرسول صلى الله عليه وسلم .

٧ـ كما يرجع ابن الجوزي إلى الأدب والشعر لبيان فضل السودان والأحباش ، وهي ضرورة أملاها الموضوع وجاءت في مواضع محددة وقليلة نسبياً إذا ما قيست باعتماد ابن الجوزي على القرآن والحديث والسيرة النبوية والتاريخ في بيان فضل السود والأحباش ، كما أنه لم يذكر شعراء سوداً كباراً كالحيقطان وسنيح بن رباح وعكيم الحبشي مع شهرتهم .

٨ـ اللغة : ولقد وضع ابن الجوزي كتابه بلغة عربية رصينة فصيحة على المستويات الصوتية والدلالية والصرفية دون تعقيد ، فدلت على المعاني بوضوح وفصاحة تامة .

وهكذا وضع ابن الجوزي كتابه : تنوير الغبش في فضل السودان والحبش وفق المنهج الديني الإسلامي النقلي من البسملة إلى الختام ، وقد تتبع مفردات موضوعه في القرآن الكريم والسنة النبوية والسيرة وكتب التاريخ ووضع ذلك كله بلغة فصيحة ، وقد غطت أبواب الكتاب كل ما يتعلق بالسود : أصلهم ، سبب سوادهم ، ممالكهم ، فضائل في طباعهم ، الأسود من الحيوان والنبات والحجر ، الهجرة إلى الحبشة وأسماء المهاجرين ، الأحاديث النبوية فيهم ، مكاتبات الرسول مع النجاشي ، لعب الحبشة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما جاء في القرآن موافقاً للغة الأحباش ، أنبياء السود ، أشرافهم من الصحابة والصحابيات ، المبرزين في العلم من السود ، الشعراء السود ، الفطناء والأذكياء منهم ، المتعبدين والمتعبدات ، ومن كان يؤثر الجواري السود على البيض وأبناء الحبشيات من قريش .

الخاتمة

إن دراسة ما كتب عن السود في العصر العباسي في إطار تاريخي قائم على أساس معرفة قوة هؤلاء السود أو ضعفهم في فترة الدراسة ساعد كثيراً على الكشف عن طبيعة هذه الدراسات وأسباب وضعها ومنهجها وطبيعة أسلوبها ونوعية مفردات البنى الدلالية التي اعتمد عليها المؤلف.

ولذا فإن قوة السود منذ بداية الدولة العباسية، وربما قبل قيامها بقليل، واشتراكهم في الجيوش العباسية المؤسسة للدولة كجيش أبي مسلم الخراساني ويحيى بن محمد أخي السفاح، وكثرتهم في الحواضر العباسية ولاسيما بغداد والبصرة، وتشكيلهم لقوة اجتماعية واقتصادية وعسكرية، وتوقع زيادة قوتهم وخطرهم كلها أمور دفعت الجاحظ إلى المضي في الكتابة عن السود.

وبحجم قوة السود في عصر الجاحظ كان عنوان رسالته: فخر السودان على البيضان، فهو لم يحاول أن ينوِّر الغبش في فضل السودان والحبش كما فعل ابن الجوزي، ولم يحاول أن يرفع من شأن الحبشان كما فعل السيوطي، ولكنه فاخر بهم وانتصر لهم من مركز قوة، معبراً بذلك عما آلت إليه أوضاعهم في عصره من قوة إلى درجة القيام بثورة الزنج في السنة التي توفي فيها الجاحظ وهي سنة ٢٢٥هـ.

كما أن الجاحظ لم يبتكر منهجاً جديداً لرسالته هذه: فخر السودان على البيضان. إذ إن منهجه هذا في رصد الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والكتابة عنها منهج معروف عند الجاحظ في كتبه مثل: البرصان والعرجان والعميان والحولان، والحيوان والبخلاء، وفي الكثير من رسائله مثل: مفاخرة الجواري والغلمان، ذم أخلاق الكتاب، الحجاب وغيرها.

أما أسلوب الازدواج القائم على المناظرة والاحتجاج فهو أسلوب عرف به الجاحظ أيضاً وكان نتاج فكره المعتزلي وتأثره بالنظام. كما استخدم الجاحظ هذا الأسلوب في رسالته: فخر السودان على البيضان فقد استخدمه في رسائل أخرى

مثل: مفاخرة الجواري والغلمان، كتاب فصل ما بين العداوة والحسد، رسالة في الجد والهزل وغيرها، كما استخدم هذا الأسلوب أيضاً في الكثير من مناظراته في كتاب الحيوان كمناظراته بين الكلب والديك والبعير والفيل والزرع والنخيل.

أما من حيث مفردات البنية الدلالية لرسالة الجاحظ: فخر السودان على البيضان فقط ربط الجاحظ اللون الأسود بالعربي والبيئة العربية بما فيها ليفخر بالسودان على البيضان. ولعل في ذلك ما يؤكد شدة تمسك الجاحظ بالعروبة في عصر كثرت فيه الأجناس غير العربية.

وعند الرجوع إلى المفردات نلاحظ أنها عربية في الغالب مما جعل الرسالة وكأنها فخر للعرب على من سواهم. فقد افتخر الجاحظ بشخصيات عربية سوداء جاهلية وإسلامية، وفاخر بالشعر العربي لشعراء كثيرين من عصور مختلفة، وفاخر بصفات عربية في السود كقوة البدن وحسن الخلق والكرم والفصاحة والشجاعة والنبل وقوة الباه والحرص على النساء وغيرها. كما فاخر بفضل اللون الأسود وربطه بما في البيئة العربية من حيوان وجماد وزرع ومعادن وغيرها. فافتخر بالأسود من الإبل والبقر والأسد والخيل والشياه، وافتخر بالأسود من الجبال والتمر والنخيل والإثمد والأبنوس والحجر والحديد والنحاس، كما افتخر بسواد المسك والعنبر والشعر والكبد والليل والظل وغيرها. وفاخر صراحة بسواد العرب، وأكد أن العربي يفخر بسواده، وأن ولد عبدالمطلب العشرة كانوا دلماً ضخماً، وأن العرب من السودان لا البيضان، ثم يحاول أن يربط اللون الأسود بأبناء الأنبياء، فسيدنا إسماعيل عليه السلام ابن هاجر القبطية وسيدنا إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن مارية القبطية.

وبذلك يكون الجاحظ قد ربط اللون الأسود بالعربي وبيئته وأشيائه ونبيه ربطاً محكماً ليفخر بذلك كله بالسودان على البيضان.

ولعل أبرز النقاط في منهج المعالجة في رسالة الجاحظ: فخر السودان على البيضان أن الجاحظ سار وفق ـ نهج حجاجي واستخدم أسلوب الازدواج العذب،

مما جعل قراءة الرسالة ومتابعتها عملية شيقة، فما إن يمسك أحد بالرسالة إلا وقد قرأها من أولها إلى آخرها بشغف ولذة عقلية.

كما أن تغييب الطرف الآخر المنتصر للبيض جعل الرسالة أكثر تشويقاً وإثارة لحماسة القارىء دونما تشويش من الطرف الآخر، فزاد الإقناع وزادت الحجج. أما حسن انتقال الجاحظ من فقرة إلى فقرة ومن موضوع إلى موضوع وحسن الرجوع إلى فقرته أو موضوعه فهي ميزة من مميزات أسلوب الجاحظ حيث تتضح قدرته البالغة في الكتابة وعذوبة أسلوبه.

ويلاحظ أن الجاحظ لم يستخدم آيات قرآنية كثيرة ولا أحاديث نبوية كثيرة في رسالته على الرغم من كثرة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي نزلت في الأحباش والسود والزنج والرقيق والإماء والعبيد، إذ إن الجاحظ لم يستخدم إلا ثلاث آيات قرآنية وحديثاً واحداً. ولعل الجاحظ ابتعد عن ذلك لئلا يذكر القارئ والخصم الأبيض بأن السود كانوا عبيداً وإماءً ورقيقاً، ولولا الإسلام لظلوا على حالتهم الضعيفة التي لا تدعو إلى المفاخرة بهم، كما أن الجاحظ لم يفاخر بنساء سود باستثناء ذكره لدنانير بنت كعبويه وأم مكية الزنجية وإشارته إلى هاجر ومارية القبطية، ولعله ابتعد عن الخوض في هذا الموضوع لضعف حجته فيه.

إن القضاء على ثورة الزنج سنة ٢٧٠هـ أصاب السود بخيبة أمل كبيرة جعلت أكثرهم يعيشون في ظلال الحياة العباسية لا داخلها، ويقنعون بالعمل من أجل العيش في أي مهنة مهما كانت وضيعة.

كما أن انتشار العنصر التركي، منذ أيام المعتصم العباسي، في الحواضر العباسية قد أضعف الدور الذي من الممكن أن يقوم به السود في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وجعلهم أكثر سلبية، واستمر حال السود هذا حتى حكم السلاجقة بغداد في العصر العباسي الرابع حيث وضع ابن الجوزي مؤلفه فيهم.

ولما كان حال السود في عصر ابن الجوزي ضعيفاً فقد جاء كتابه: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش، في الدفاع عن السود والأحباش وبيان فضلهم بصوت

منخفض وهادىء وليس الفخر بهم بصوت مرتفع ونبرة حادة كما فعل الجاحظ في رسالته: فخر السودان على البيضان.

واستخدم ابن الجوزي في كتابه: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش طريقة السرد التاريخي الديني الذي عرف به واستخدمه في الكثير من كتبه، وقد قسم كتابه إلى ثمانية وعشرين باباً خصص كل باب لموضوع متعلق بالسود والأحباش لبيان فضلهم، ويبدأ ابن الجوزي كتابه بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد، فيقول العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي الحنبلي رحمه الله تعالى: هذا كتاب في فضل السودان والحبش رتبته على ثمانية وعشرين باباً وسميته: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش. . .[١١٨] وهي كأي مقدمة يبدأ بها أي كتاب تاريخي في ذلك العصر. وبعد الانتهاء من أبواب الكتاب يأتي ابن الجوزي إلى الخاتمة فيقول: «والحمد لله حمداً كثيراً دائماً وأبداً، وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وتابعيه وتابعي تابعيه إلى يوم الدين يا رب العالمين»[١١٩].

وهي أيضاً نهاية كنهاية أي كتاب تاريخ في عصر المؤلف، وقد جاء أسلوب ابن الجوزي رصيناً جاداً وهو أسلوب كتابة التاريخ بالسرد الذي عرف عنه. كما جاء خالياً من السجع أو التكلف أو الجدال في إظهار الحقائق. . ولم نلاحظ ارتفاع نبرة الخطاب في الكتاب كما هي الحال في رسالة الجاحظ: فخر السودان على البيضان، بل جاءت الحقائق والمعلومات بنبرة هادئة وصوت وقور يعكس شخصية ابن الجوزي.

ولعل من أبرز النتائج بعد دراسة كتاب ابن الجوزي هذا هي حرص ابن الجوزي على كتابة تاريخ للسود والأحباش يحفظ حقهم ويبين فضلهم وليس المفاخرة بهم

١١٨ـ المصدر السابق، ١ب.
١١٩ـ المصدر السابق، ١٠٨ب.

أو الدفاع عنهم، في عصر أصبحوا فيه، لا حول لهم ولا قوة، لذا فقد مضى ابن الجوزي يستقي مادة كتابية من القرآن والحديث والسيرة والتاريخ بشكل أساسي.

ففي الباب الثاني عشر استعان بالقرآن الكريم ليبين الكلمات التي جاءت في القرآن الكريم موافقة للغة الأحباش، ويلاحظ هنا أن ابن الجوزي قد أغفل ذكر الكثير من الآيات القرآنية التي نزلت في العبيد والإماء والرقيق.

كما استعان ابن الجوزي بخمسة وخمسين حديثاً نبوياً بأسانيدها تتعلق بالسود والأحباش، ويلاحظ أن جميع الأحاديث النبوية المتعلقة بالسود والأحباش تقريباً، مما يجعل من هذا الكتاب مرجعاً تاريخياً يمكن الرجوع إليه والاعتماد عليه في معرفة الأحاديث النبوية في السود والأحباش. ومما يؤكد أصالة علم الحديث في شخصية ابن الجوزي حرصه على إيراد أسانيد الأحاديث النبوية بطولها. كما اعتمد ابن الجوزي على السيرة النبوية في ذكر أخبار السود والأحباش وأسمائهم ومواقفهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهجرتهم إلى الحبشة. والتزاماً من ابن الجوزي بأسلوب السرد التاريخي الديني نراه يذكر أسانيد رواياته وأخباره تلك بدقة، مع عدم حرصه على ذكر مصادره من كتب السيرة النبوية.

ويلْجأ ابن الجوزي إلى التاريخ القديم والإسلامي ليدعم رأيه في الكثير من الآراء والروايات المتعلقة بنسب السودان وسبب سواد ألوانهم، وإحياء عيسى بن مريم لحام بن نوح، وذكر ممالك السودان من الأرض، وذكر أبناءهم وملوكهم وأشرافهم وغيرها. ونلاحظ هنا إغفال ابن الجوزي ذكر مصادره التاريخية التي استقى منها أخباره، ومع ذلك يبدو أن ابن الجوزي قد استعان بتاريخ الطبري عند الأحاديث عن نسب السود وتاريخهم القديم أيام نوح عليه السلام وتاريخ ملوكهم وأنبيائهم، كما استعان بالسيرة النبوية لابن هشام عند الحديث عن الهجرة إلى الحبشة والنجاشي، وأسماء المهاجرين وأبنائهم ونسائهم، وأسماء من ولد لهم بأرض الحبشة.

ولما كان هدف ابن الجوزي في هذا الكتاب هو كتابة تاريخ السود والأحباش وليس الفخر بهم نلاحظ أنه حرص على ذكر أسماء الكثير من النساء السود ولاسيما الصحابيات، على العكس من الجاحظ.

كما نلاحظ أن هدف ابن الجوزي هذا جعله قليل الاستشهاد بالشعر على العكس من الجاحظ أيضاً.

وهكذا نرى أن قوة السود في عصر الجاحظ دفعته إلى وضع رسالته: فخر السودان على البيضان وفق بناء حجاجي متماسك وباستخدام أسلوب الازدواج العذب، رابطاً بين اللون الأسود والعرب وكل ما في البيئة العربية من منظور إثني، في بناء دلالي ثابت، ووفق منهج عقلي في المعالجة، فيما ذهب ابن الجوزي ونتيجة لضعف السود في عصره إلى وضع كتابه: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش، معتمداً على السرد التاريخي الديني وبأسلوب رصين هادىء من منظور تاريخي ديني، في بناء دلالي واضح، ووفق منهج نقلي في معالجة موضوعه وتتبعه عبر السنين ليسجل للسود والأحباش تاريخاً قد أنصفهم فيه القرآن الكريم والحديث النبوي والسيرة النبوية وكتب التاريخ.

المصادر والمراجع

١ـ ابن الأثير، علي بن محمد. الكامل في التاريخ. بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م.

٢ـ البخاري، محمد إسماعيل، صحيح البخاري بحاشية السندي. بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.

٣ـ البخاري، محمد عبدالباقي، الطراز المنقوش في محاسن الحبوش. الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٩٥م.

٤ـ بدوي، عبده. السود والحضارة العربية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.

٥ـ ـــــــ الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.

٦ـ الترمانيني، عبدالسلام. الرق ماضيه وحاضره. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. سلسلة عالم المعرفة، رقم ٢٣، ١٩٧٩م.

٧ـ الجاحظ، عمرو بن بحر. رسائل الجاحظ، الجزء الأول، الرسالة الرابعة: فخر السودان على البيضان. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٤م.

٨ـ الجهشياري، محمد بن عبدوس. الوزراء والكتاب، مصر: ١٩٣٨م.

٩ـ ابن الجوزي، عبدالرحمن، أبو الفرج. تنوير الغبش في فضل السودان والحبش. القاهرة: المكتبة الأزهرية، رواق المغاربة، مخطوط رقم ١٢٠٦.

١٠ـ ـــــــ لفتة الكبد إلى نصيحة الولد. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.

١١ـ ـــــــ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.

١٢ـ الحاكم النيسابوري، الحافظ، أبو عبدالله، المستدرك على الصحيحين، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، بيروت: دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.

١٣ـ ابن حبيب، محمد. المحبر. بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع. بدون تاريخ.

١٤ـ ابن حنبل، الإمام أحمد. مسند أحمد بن حنبل. بيروت: دار صادر، ١٩٦٩م.

١٥ـ الخطابي، محمد العربي. تنقيح الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م.

١٦ـ أبو داود، سليمان بن الأشعث. سنن أبي داود. بيروت: دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.

١٧ـ الديلمي، شيرويه بن شهريار. الفردوس بمأثور الخطاب. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م.

١٨ـ السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر ـ أزهار العروش في أخبار الحبوش. الكويت: مركز المخطوطات والتراث والوثائق، ١٩٩٥م.

١٩ـ ضيف، شوقي. العصر الإسلامي. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م.

٢٠ـ ـــــــ العصر العباسي الثاني. القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٣م.

٢١ـ ـــــــ عصر الدول والإمارات، الجزيرة العربية ـ العراق ـ إيران. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠م.

٢٢ـ العارف، ممتاز. الأحباش بين مأرب وأكوم. بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ١٩٧٥م.

٢٣ـ العلوجي، عبدالحميد. مؤلفات ابن الجوزي. الكويت: منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، ١٩٩٢م.

٢٤ـ مجد الدين النشابي الكاتب. المذاكرة في ألقاب الشعراء. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، ١٩٨٨م.